تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة

مع
ترجمة مقال الكاتب اللاتيني دي ميجنانللي
عن حياة تيمورلنك

تأليف

دكتور احمد عبد الكريم سليمان

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع

تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة

مع

ترجمة مقال الكاتب اللاتيني دي ميجنانللي

عن حياة تيمورلنك

تأليف

دكتور/ أحمد عبد الكريم سليمان

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار النهضة العربية

للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

مقدمة

ظلت فكرة الغزو العسكرى لبلاد الشام تراود قادة المغول منذ أن هزمت قواتهم على يد المماليك فى عين جالوت عـام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م • ومنذ أن أسس هولاكو دولة مغـــول فارس لم يتوقــف أبنــاؤه — الايلخانيون — عن بذل المحاولات العديدة من أجل تحقيق تلك الفكرة ، وسعوا من أجل ذلك الى التحالف مع الغرب الصليبى للقيام بهجــــوم مشترك على أراضى سلطنة المماليك غير أن تلك الجهود باءت كلها بالفشل الذريع ، فمن ناحية لم يقدم الغرب الأوربى سوى الوعود الكاذبة لأنه شك فى قدرة المغول على تحقيق ما فشلت فيه القوى الصليبيه طـوال قرنين من الزمان ، ومن ناحية أخرى واجه المغول هزائم عديده أشـــد قسوة على يد المماليك من معركة عين جالوت ، فقد أنزل بهم الظاهر بيبرس الهزيمة عند البيرة سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣ م ، وعند الابلستين سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٧ م ، كما ألحق بهم السلطان قلاوون الهزيمة عند حمص سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م ، ثم كان انتصار السلطان محمد بن قلاوون الرائع على المغول فى معركة مرج الصفر (شقحب)عام ٧٠٢ هـ/١٣٠٣ م • وقد توقف الخطر المغولى على بلاد الشام مؤقتا بعد الصلح الذى عقده السلطان النــاصر محمد بن قلاوون مع أبى سعيد ايلخان فارس عام ٧٢٠هـ/١٣٢١ م ، وتفكك دولة مغول فارس بعد وفاة أبى سعيد عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥ م •

وتجدد الخطر المغولى مرة آخرى فى نهاية القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى عندما ظهر زعيم ينتسب للمغول هو تيمور لنك تمكن من الاستيلاء على اقليم ما وراء النهر الذى كان جزءا من دولة المغــول الجغطائيين — احدى الدول التى انقسمت اليها امبراطورية جنكيزخان — ثم تمكن تيمور لنك من تأسيس امبراطورية كبيرة ونشر الخراب والدمار

وسفك الدماء فى كل أرض دخلها • كما هاجم بلاد الشام ودمــر مدنه الرئيسية لا سيما حلب ودمشق ، غير أن الظروف السياسية والعسكرية لم تمكن تيمور لنك من البقــاء فى المدن الشــامية فترة طويله بســبب استعداداته العسكرية لمواجهة السلطان العثمانى بازيد • وهكذا تمكن المماليك من استعادة بلاد الشام فور رحيل تيمور لنك •

ومع أن حملة تيمور لنك على بلاد الشام التى حدثت فى عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م فى فترة حكم السلطان الناصر فرج ٨٠١ـــ٨١٥هـ/١٣٩٩ـــ١٤١٢م جديرة بدراستها لاظهار طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية بين مصر ومختلف دول العالم آنذاك ، وابراز نواحى الضعف والقوة فى سياسة مصر فى تلك الفترة ، الا أن الدراسات العربية المتأنية والدقيقة لتلك الحملة لا تزال غير كافية ، وهذا ما دفعنى لتتبع أحداث حملة تيمور لنك على بلاد الشام والقاء الضوء على مقدماتها وأحداثها ونتائجها •

ورأيت استكمالا للفائدة ترجمة مقال دى ميجنانللى De Mignanelli الكاتب اللاتينى المعاصر لأحداث هجوم تيمور لنك على بلاد الشـــام وتدميره حلب ودمشق • وهو المقال الذى يحمل عنوان : حيـــاة تامرلان Vita Tamerlani أو خراب دمشق Ruina Damasci •

وقد سبق أن ترجم هذا المقال من اللاتينيه الى الانجليزية الاستاذ والتر فشل ، وأقدمه بدورى مترجما ومحققا الى اللغة العربية مع التعليق عليه فى القسم الثانى من هذا الكتاب . وذلك لأهمية هذا المقال وما يحتويه من معلومات تاريخية مفيدة عن أحوال مصر والشام فى مطلع القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى •

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه •

والله ولى التوفيـــق ••

د• أحمد عبد الكريم سليمان

القسم الأول

تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة

- تيمورلنك والمغول الجغطائيون
- امبراطورية تيمورلنك
- تيمورلنك والسلطان المملوكى الظاهر برقوق
- تيمورلنك والسلطان الناصر فرج بن برقوق

تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة

تيمورلنك والمغول الجغطائيون :

ولد تيمور لنك فى عام ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م فى مدينة كش Kech جنوب سمرقند فى منطقة كشكا داريا Qashka Darya فى اقليم ما وراء النهر[١] • وكان ابنا لطراغاى من عشيرة البرلاس ، وهى من عشائر المغول التى قدمت مع الجغطائيين الى ما وراء النهر عند احتلالهم لهذه المنطقة ، وقد أصبحت هذه العشيرة ضمن المغول المتتركين[٢] • ويختلف المؤرخون فى نسب تيمور لنك وارتقائه الى عائلة جنكيزخان • غير أن تيمور نفسه لم يدع هذا الانتساب ، فلم يحتفظ ضمن ألقابه بلقب « الخان » ، بل كان لقبه « الأمير » • ولكى يوضح علاقته بالبيت المغولى فانه حاز على لقب « جوركان » أو « كوركان » بمعنى صهر الملوك أو

(١) تقع مدينة كش على نهر كشكا داريا فى اقليم ما وراء النهر ، وقد سميت هذه المدينة فى العصور الوسطى باسم شهر بزاب أو شهر سبز أى المدينة الخضراء •

انظر : لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص ٥١٢—٥١٣ •

(2) Grousset, L'Empire des steppes, p. 486; Alessandro Bausani, The Persians from the earliest days to the twentieth century..., p. 124; Hilda H., Tamburlaine, p. 41; Spuler, B., les Mongols dans L'histoire, p. 102; joseph E. Schwartzberg, A Historical Atlas of south Asia- p. 198—199.

وانظر المصادر العربية التالية وفيها ان تيمور ولد سنة ٧٢٨ هـ :

ابن عربشاه : كتاب عجائب المقدور فى أخبار تيمور ص ٥—٦ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب مجلد ٤ حوادث سنة ٨٠٧هـ ص ٦٢ ، ابن تغرى بردى : الدليل الشافى على المنهل الصافى ج ١ ص ٢٢٤ ترجمة رقم ٧٨٥ •

صهر الخان[٣] . ومهما اختلفت الآراء والروايات فى نسب تيمورلنك ، فان الواقع التاريخى يثبت أنه كان امتدادا فعليا للمغول وحضارتهم ، وأن تاريخه يمثل جزءا من التاريخ المغولى وحلقة من حلقاته .

وكانت دولة المغول الجغطائيين فى أواسط آسيا قد دب فيها الانحلال والتفكك منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى بفعل عوامل عديدة أهمها زيادة نفوذ الارستقراطية العسكرية فى الدولة ، وضعف شخصية الخانات، والخلاف بين سكان البلاد المسلمين والغزاة المغول[٤] . وقد انقسمت دولة المغول الجغطائيين آنذاك الى اقليمين : اقليم مغولستان فى الشرق ويمتد من نهر سيحون Sirdarya الى حوض تاريم ونهر أرتش ، واقليم ما وراء النهر فى الغرب ؛ وقد حكم كل من الاقليمين بفرع مختلف من العائلة الجغطائية . ثم استمر الصراع بين الأقليمين من ناحية ، وداخل كل اقليم من ناحية أخرى . وسيطرت العشائر المغولية والتركية على المناطق التى أقامت فيها ، ومن تلك العشائر عشيرة البرلاس التى ينتمى اليها تيمورلنك ، وقد سيطرت على منطقة كشكا داريا فى اقليم ما وراء النهر[٥] .

---

(3) Hilda, op. cit., p. 41; Barthold, four studies on the history of Central Asia, vol. 11, p. 9;

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ترجمة د. احمد السعيد سليمان ص ٢١٧ ، وقد ذكر خواندمر ان نسب تيمور يرجع حسب ما ذكرته الكتب الشهيرة الى « قراجار نويان » راس قبيلة البرلاس فى عهد الفاتح المغولى جنكيزخان ، فى حين ذكر البدليسى ان تيمور من أسره مغوليسة يرتقى نسبها الى جنكيزخان او احد أقربائه ، أما جروسيه فيرى ان تيمور لم يكن مغوليا قط بل تركيا من عشيرة البرلاس . انظر : خواندمير : دستور الوزراء ترجمة وتعليق د. حربى امين سليمان ص ٣٩٢ ضمن كتابه « المؤرخ الايرانى الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء » ، البدليسى : شرفنامة ج ٢ تعريب محمد على عونى ص ٥٥ ،
Grousset, op. cit., p. 486.

(4) Hilda, op. cit., p. 38—40, Phillips, E., The Mongols, p. 125.

(5) Hilda, op. cit., pp. 38—40.

وكان تيمور لنك فى بداية حياته فارسا ممتازا وماهرا فى الرمى والسهام . كما كان طموحا الى أن يكون من أصحاب النفوذ فى اقليمه ، وعلى ذلك كون له اتباعا مسلحين أخذ يستخدمهم فى غارات النهب والسلب، وبسبب غاراته أصيب فى أحد المعارك فى كتفه وفخذه فأصبحت رجله عرجاء ، وذراعه مشلولة(٦) . وحانت الفرصة لتيمورلنك لتحقيق طموحاته عندما نشبت الاضطرابات والفتن فى اقليمما وراء النهر عقب مقتل أحد الأمراء من أصحاب النفوذ وهو الأمير قازاغان سنة ١٣٥٨ م . فعـــزا عندئذ تغلق تيمور خان الجغطـــائيين فى اقليم مغولستان . غــزا اقليم ما وراء النهر بحجة اعادة توحيد اقطاع جغطاى الى ما كان عليه ، وقد أعلن حاجى برلوس زعيم عشيرة برلاس فى منطقة كشـــكا داريا التى هاجمها تغلق تيمور المقاومة غير المتكافئة ، وهرب من شـــهر يزاب الى خراسان . وهنا نجد تيمور لنك بدلا من مقاومة الغزاة لاقليم عشيرته ، نجده يسارع باستغلال هذه الفرصة والدخول فى طاعة تغلق تيمور خان مغولستان . فرحب بذلك تغلق وأسند الى تيمورلنك حكم منطقة كشكا داريا(٧) . ثم خاض تيمور لنك بعد ذلك نضـــالا مريرا ضد الأمـــراء المحليين المنافسين له ، وضد الجغطائيين أنفسهم حتى تخلص من معظم خصومه ، بحيث لم يأت عام ١٣٧٠م/٧٧١هـ حتى أصبح تيمور لنك هو الشخصية الرئيسية فى بلاد ما وراء النهر ، لكنه مع ذلك احتفظ دائما

(٦) ابن عربشاه : مصدر سابق ص ٦ ، ابن العماد الحنبلى . مصدر سابق مجلد ٤ سنة ٨٠٧ هـ ص ٦٣ .

ويقال فى اسباب اصابته روايات اخرى انظر :
Hilda, op. cit., p. 43—44;

وكان اسمه فى البداية تيمور ، ولما اصيب فى فخذه اضيف الى اسمه المقطع Lank اى الأعرج ، فأصبح اسمه تيمور لنك ، انظر : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٥٥ ،

De Mignanelli, vita Tamerlani, p 228, Note I, in «Oriens, vol.9,» 1956.

وانظر القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٣٩ هامش ٦١ ،

(7) Hilda, op. cit., p 42-43; Grousset, op cit., p. 487—488

بوجود رمز للخانات الجغطائيين ؛ فى حين أصبحت السلطة الحقيقية فى يد تيمورلنك الذى أعان انه وريث لامبراطورية الجغطائيين(٨) •

امبراطورية تيمور لنك :

وبدأ تيمورلنك فى وضع استراتيجية تهدف الى انشاء امبراطورية مغولية كبرى على غرار امبراطورية جنكيزخان • ومن أجل تحقيق ذلك الهدف امتد نشاط تيمورلنك العسكرى من نهر الفولجا فى روسيا حتى دمشق فى الشام ، ومن أزمير فى آسـيا الصغرى حتى نهر الجانج فى الهند ، ناشرا الخراب والدمار والمذابح فى كل المناطق التى دخلها دون أن يستقر له حكم فيها • فبعد أن تمكن من ضم اقليم خوارزم الى مملكته سنة ٧٨١ هـ/١٣٨٠ م(٩) شرع فى غزو فارس منذ سنة ٧٨٢هـ/١٣٨١م ، فعبر نهر جيحون واخترق خراسان وزحف نحو هراة عاصمة الكرت حيث أخضع حاكمها غياث الدين على لسلطانه(١٠) ، ثم اتجه تيمورلنك الى شرق

(8) Hilda, op. cit., pp. 48—51; Grousset, op. cit., p. 493—494; Desmaisons, p., Histoire des Mongols et des Ta Tares par Aboul-Ghazi Behadour Khan, p. 163.

(٩) البدليسى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٥٩—٦٠ ،
Grousset, op. cit., p. 498—499; Hilda, op. cit., pp. 90—95.

(١٠) البدليسى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٦١ ،
Lucien Bouvat, L'Empire Mongole, p 43; Grousset, op. cit., p. 505—506; Allessandro, B., op. cit., p. 125; Hilda, op. cit., p. 103-106; Spuler, op. cit., p. 106.

وعندما ضعفت دولة مغول فارس وانقرضت سلالة هولاكو بموت أبى سعيد سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٥ م نشأت على انقاضـها أربع دول هى : الدولة الجلائرية ، والدولة المظفرية ، ودولة كـرت ، والدولة السربدارية •. وكان الجلائريون يحكمون مناطق بغداد وتوريز فى اذربيجان وعاصمتهم توريز ، فى حين حكم المظفريون — وهم من العرب — فى فارس وعراق العجم وكرمان وعاصمتهم يزد ، أما الكرت فحكموا فى المناطق الشمالية الشرقية من فارس والاقاليم المجاورة لها وعاصمتهم هراة ، وحكم السربداريون فى سبزاور فى خراسان ، للمزيد من التفاصيل انظر :
Browne, Aliterary history of Persia, vol. 111, pp. 60, 161—180; Lucien B.; op. cit., pp. 26 — 30; Grousset, op. cit., p, 504; Sykes p, Ahistory of Persia, vol. 11, p. 116—117; Cambridge history of Iran, vol. 5, p. 413—414.

بخراسان فاستولى على سبزاور وقضى على أسرة السبرداريين بها ، كما استولى على مازندران وسيستان[11] •

وواصل تيمورلنك حملاته العسكرية لاخضاع بلاد فارس كلها، فهاجم منذ سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦ م المناطق الغربية منها ، وزحف على أذربيجان ودخل توريز ، ثم اتجه الى جورجيا وأرمينيا عندما سمع بأخبار هجوم خصمه طقتمش خان القفجاق على أذربيجان سنة ٧٨٩ هـ/١٣٨٧ م فعاد على الفور لمواجهته • وبعد حرب قصيرة مع خان القفجاق عاد تيمورلنك الى عملياته العسكرية فى غرب أرمينيا حيث هاجم الأمراء التركمان بها • كما استولى تيمورلنك على شيراز واصفهان وكرمان وقضى على الأسرة المظفرية الحاكمة فى تلك المناطق ، وقتل فى اصفهان وحدها سبعين ألف شخص ، كما نقل الحرفيين من تلك البلاد الى عاصمته سمرقند ، وقد استغرقت تلك الحروب من تيمورلنك حتى سنة ٧٩٥ هـ/١٣٩٣م[12] •

وكان يحكم الدولة الجلائرية فى تلك الفترة السلطان احمد بن أويس ، وقد أدرك سلطان الجلائريين نوايا تيمورلنك ضده ، وأن دولة الجلائريين لن تسلم من المصير الذى آلت اليه سائر الدول الأخرى فى فارس ، وبوجه خاص بعد أن حاول تيمورلنك فى عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦ م القضاء على أحمد بن أويس فى تبريز لولا فراره الى بغداد[13] • وبعد

---

(11) Alessandro, B., op. cit., p. 125; Grousset, op. cit., p, 506—507; Lucien Bouvat, op. cit., p. 43; Browne, op. cit., vol. 111, p, 160 Hilda, op. cit., pp. 106—108.

(12) Grousset, op. cit., pp. 508-511; Browne, op. cit., vol., 111, p. 160, 191; Alessandro, B., op. cit., p. 126; Hilda, op. cit-, pp, 113—115; Grousset, Histoire de L'Asie, Part 111, Le Mond Mongol, p. 117.

(١٣) ابن حجر العسقلانى : انباء الغمر بابناء العمر جـ ١ « تحقيق د. حسن حبشى » ص ٣١٢ ، العينى : عقد الجمان مجلد ٢٦ مخطوط حوادث سنة ٧٨٨هـ/ص ٣٠٧ ،

Howorth, History of the Mongols, Part 111, p. 661—662.

أن استولى تيمورلنك على الامارات التركمانية فى أرمينيا وكانت خاضعة من الناحية الاسمية لأحمد بن أويس[١٤] ؛ قرر أى تيمورلنك فى عام ٧٩٥ هـ/١٣٩٣ م الزحف على بغداد ، فأسرع أحمد بن أويس برسائل الهدايا الثمينة اليه واعتذر فى نفس الوقت عن الحضور بشخصه لمقابلة الفاتح المغولى ، كما أبدى انزعاجه من القوة العسكرية الهائلة التى نصاحبه • ولم يؤد ذلك الاجراء من جانب أحمد بن أويس الى ارضاء تيمورلنك الذى أصر على الدعاء له فى خطبة الجمعة فى مساجد بغداد وسك العملة باسمه بما يعنى خضوع أحمد بن أويس له خضوعا فعليا[١٥] • ومع أن أحمد بن أويس قد استجاب لكل تلك الطلبات ، فلبس خلعة تيمورلنك وضرب السكة باسمه كما ذكر اسمه فى الخطبة الا أن ذلك لم يؤد الى حماية مملكة أحمد بن أويس من هجمات تيمورلنك ، ذلك أن أحمد بن أويس كان حاكما ظالما لرعاياه ، فحث هؤلاء تيمورلنك على الاستيلاء على بغداد ، فاستغل تيمورلنك هذه الفرصة وهاجم المدينة واستولى عليها سنة ٧٩٥ هـ/١٣٩٣ م ، فهرب أحمد بن أويس الى القاهرة حيث استقبله السلطان برقوق بترحاب كبير[١٦] •

---

(14) Howorth, op. cit., Part 111, p. 661—662.

(15) Browne, op. cit., vol. 111, p. 191; Lucien, B., op. cit, p, 49; Hcworth, op. cit., part 111, p. 662;

(١٦) الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس والأبدان فى نوارخ الزمان تحقيق د. حسن حبشى جـ ١ ص ٣٦٣—٣٦٥ ، ٣٧٥—٣٧٧ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه • الجزء الثالث منه تحقيق عدنان درويش ص ٤٧٣—٤٧٨ ، ٥٠٤—٥٠٥ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ٢ تحقيق د. قسطنطين زريق ، د. نجلا عز الدين ص ٣٤٤—٣٤٥ ، ٣٦٦—٣٦٧ ، العينى : مصدر سابق حوادث سنة ٧٩٥ هـ ص ٤٤٦—٤٤٨ ، ص ٤٥٢—٤٥٣ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ١ ص ٤٥٠ ، ٤٦٩ ، ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا نشره محمد بن تاويت الطنجى ص ٣٦٤ : المقريزى: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ٣ ق٢ ص ٧٨٧—٧٨٩ ، ص ٧٩٩—٨٠١ • ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٤٣—٤٩ ، د. حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ص ١٢٣—١٢٤ ،

J. Aubin, Tamerlan à Bagdad, p 303, in «Arabica vol IX 1962».

تيمور لنك والظاهر برقوق :

وبعد أن فشل تيمورلنك فى القبض على أحمد بن اويس ، صب جام غضبه على أهل بغداد وصادرهم ثلاث مرات ، وأنزل بهم صنوف العذاب[١٧] ، ثم حاول خداع السلطان برقوق سلطان مصر ، فأرسل اليه رسالة طلب فيها عقد معاهدة صداقة بين الجانبين ، وتسهيل التجارة، كما طلب فى نفس الوقت ارسال أحمد بن أويس اليه[١٨] . لكن السلطان برقوق الذى أدرك بثاقب بصره خطورة القوة المغولية الجديدة النامية فى الشرق ، أدرك أيضا أن تسليم اللاجىء السياسى الى القاهرة هو اهانة كبيرة لشخص سلطان مصر والدولة المملوكية بأسرها . وعلى ذلك رفض بشدة طلب تيمورلنك وأعلن أنه لن يسلم السلطان الجلائرى أحمد بن أويس بل لن يتخلى أيضا عن أقل مملوك من مماليك ذلك السلطان[١٩] . وأخذ الظاهر برقوق يستعد للحرب ، كما تم قتل رسل تيمورلنك عند الرحبة[٢٠] .

---

(١٧) ابن قاضى شهبة : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٧٥ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ١ ص ٤٥٣ .

(١٨) ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ١ ص ٤٥٢ ؛

Grousset, L'Empire des Steppes, p. 527; Howorth, op cit., part 111, p. 666, Browne, op. cit., vol. 111, p 191; M. Prawdin, The Mongol empire, its rise and Legacy, p. 469; Lucien Bouvat, op. cit., p. 49;

وانظر ايضا : د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٦٧—١٦٨ .

(19) De Mignanelli, Ascensus Barcoch, p. 167, in «Arabica vol. VI 1959».

(٢٠) ابن خلدون : التعريف .. ص ٣٦٤ ؛ ابن قاضى شهبة : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٧٩ ؛ المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٢ ص ٧٩١ ؛ ٧٩٧؛

De Mignanelli, Ascenus p. 168, Howorth, op. cit., part 111, p. 666.

وانظر ايضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٥٨—١٥٩ .

وزاد من سرعة استعداد برقوق للحرب اكتشافه جواسيس لتيمورلنك فى القاهرة جاءوا الى مصر فى هيئة تجار وأعاجم ، وقد قبض على سبعة منهم(٢١) .

واستشاط تيمورلنك غضبا لقتل سفرائه ، فأرسل الى برقوق رسالة شديدة اللهجة تفيض بالتهديد والانتقام ، وتنكر عليه قتل السفراء ، غير أن برقوق لم يهتز لتلك الرسالة بل رد عليها برسالة أخرى أقوى تعبيرا وأشد تهديدا (٢٢) . وبرغم الأزمة المالية الشديدة التى كانت تعانى منها مصر آنذاك(٢٣) ، فقد خرج السلطان برقوق على رأس جيشه متجها الى دمشق مصطحبا معه أحمد بن أويس . ووصل برقوق وجيشه الى دمشق فى جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ/فبراير ١٣٩٤م ومنها الى حلب . وفى تلك الظروف عرض السلطان بايزيد العثمانى وطقتمش خان القفجاق التحالف مع برقوق لأن الجميع كانوا يشعرون بخطر توسع تيمورلنك وأعماله

---

(٢١) الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٧٨ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ١ ص ٤٧٤ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ جـ٢ ص ٣٦٩ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق جـ ٣ ص ٥٠٦ .

(٢٢) الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ١ ص ٣٧٣ —٣٨٣ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق جـ ٣ ص ٥٠٧—٥٠٨ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ جـ ٢ ص ٣٧١—٣٧٣ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٢ ص ٨٠٣— ٨٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٤٩—٥٢ ، وانظر ايضا :

De Mignanelli, Ascensus.., p. 168—169; S. Lane Poole, A history of Egypt in the Middle ages, p. 332.

(٢٣) كانت تلك الأزمة المالية بسبب تبديد الناصرى ومنطاش لأموال الخزانة فى فترة استيلائهما على الحكم ونفى برقوق الى الكرك . وقد اضطر برقوق فى أثناء استعداداته لملاقاه تيمولنك الى الاقتراض من التجار مبلغ مليون درهم . انظر : ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ١ ص ٤٧٠ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق٢ ص ٨١١ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٥٥—٥٧ وعن الفتن الداخلية فى اثناء تولى منطاش والناصرى الحكم فى مصر انظر : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٥٥—١٥٧ ،

wiet., Histoire de la Nations Egyptienne, Tome IV, L'Egypte Arabe, pp. 513—518.

البربرية[٢٤] • ثم تقدمت قوات السلطان برقوق حتى قرب نهر الفرات الذى فصل بين قوات الجانبين ، ونجحت فرقة من المماليك فى عبور الفرات ليلا بعد أن نفخت القرب وجعلتها تحت بطون الخيل • ثم هاجمت مقدمة جيش تيمورلنك وألحقت بها الهزيمة[٢٥] • وفى تلك الظروف جاءت الأخبار الى تيمورلنك بهجوم طقتمش خان القفجاق على منطقة الأبواب عند الحدود بين الدولتين ، فآثر تيمورلنك الانسحاب من مواقعه على الفرات لمواجهة الخطر العاجل على حدود دولته ، وأجل الانتقام من المماليك الى فترة تالية[٢٦] • أما أحمد بن أويس فقد جهزه السلطان برقوق وأرسله الى بغداد حيث نجح فى استعادة ملكه وهزيمة الحامية التى تركها تيمورلنك فى المدينة ، ثم أصبح أحمد بن أويس نائبا فى بغداد عن سلطان مصر[٢٧] ، وبذلك امتد نفوذ السلطان برقوق الى العراق •

---

(٢٤) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٢ ص ٨٠٧—٨٠٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٥٢—٥٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ق٢ ص ٤٦٩ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ جـ ٢ ص : ٣٨١—٣٨٢ العينى : مصدر سابق مجلد ٢٦ ص٤٥٦—٤٥٧ ، الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ١ ص٣٨٧ ، ٣٩٠ ، د• سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٥٩ ،

Grousset, L'Empire des steppes, p. 521.

(٢٥) ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٩ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق جـ ٣ ص ٥٠٦—٥٠٧ • وانظر أيضا :

De Mignonelli, Ascensus.., p. 168; S. Lane Poole, op. cit., p.332

(٢٦) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٤٦ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤ •

(٢٧) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٢ ص ٨١٤ ، ٨١٧ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق جـ٣ ص ٥١٦ ، العينى : مصدر سابق مجلد ٢٦ ص٤٥٧• ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ١ ص ٤٧٥—٤٧٦ ، د• سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٥٩ ،

Lucien Bouvat, op. cit., p. 50; Howorth, op. cit; part 111, p. 667; Grousset, L'Empire des steppes, p. 513.

ورحل تيمورلنك عن العراق الى أرمينيا وهو عاقد العزم على العودة الى مهاجمة بلاد الشام متى سنحت له الفرصة بذلك ، غير أن ظروفه الداخلية فى ذلك الوقت لم تتح له تحقيق رغبته ؛ فقد دخل فى حرب ضد خصمه طقتمش خان القفجاق الذى عبر الدربند وهاجم الأراضى الخاضعة لتيمورلنك ؛ كما اضطر تيمورلنك أيضا الى الزحف شمالا للقيام بحملة فى جنوب روسيا وصل فيها الى قرب موسكو مما شغله لمدة عام تقريبا . ومن جهة ثانية نشبت الفتن فى فارس فى أثناء غيبة تيمورلنك فى روسيا ، كما أوقع الجورجيون الهزيمة بابنه ميران شاه ، فعاد تيمورلنك الى فارس لاخماد الفتن فيها ، ثم شعر بأنه فى حاجة الى اعادة تنظيم دولته والبقاء فى عاصمته فترة من الوقت للراحة والاستعداد لحملة جديدة ؛ فعاد الى سمرقند فى عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦ م[٢٨] .

وبعد أن أتم تيمورلنك استعداداته الحربية فضل الاتجاه الى الهند لاستكمال مشروعه الخاص بانشاء امبراطورية مغولية كبرى : وكان السبب الظاهرى المعلن لحملة تيمورلنك على الهند هو نشر الاسلام والقضاء على الوثنية فيها ومعاقبة ملوك الهند المسلمين على تسامحهم مع الهندوس ، غير أن الواقع الذى أغرى تيمورلنك على القيام بحملته هو تمزق سلطنة دلهى الاسلامية الى دويلات صغيرة لم تعد قادرة على المواجهة ، هذا فضلا عما اشتهر به تيمورلنك من حب ارتكاب المذابح وسفك الدماء للمسلمين وغير المسلمين . وقد أرسل تيمورلنك ابنه بير محمد فى عام ٨٠٠ هـ/١٣٩٨ م على رأس مقدمة الجيش التيمورى حيث نجح فى الاستيلاء على مولتان Moultan بعد حصار دام قرابة ستة شهور . ثم عبر تيمور مع باقى الجيش نهر السند فى أوائل عام ٨٠١ هـ / سبتمبر عام ١٣٩٨ م واجتمع مع قوات ابنه بير محمد وأوقع الجيش التيمورى الهزيمة بسلطان دلهى محمود شاه الثالث (١٣٩٢ — ١٤١٢ م)

---

(28) Browne, op. cit., vol. 111, p. 192; Champdor, A . Tamerlan, p. 109-111; Lucien B., op. cit., p. 50; Grousset, L'empire des steppes, p. 512—513.

ووزيره ملو اقبال Mallou IQbal ، كما استولى تيمورلنك على كثير من الأقاليم الهندية الأخرى • وأقيم الدعاء له فى مساجد الهند[٢٩] • وفى تلك الأثناء وصلت الى مسامع تيمورلنك الأخبار عن حدوث اضطرابات شديدة فى فارس فقطع حملته على الهند وعاد الى عاصمته سمرقند فى شعبان سنة ٨٠١ هـ / ابريل ١٣٩٩ م[٣٠] •

تيمور لنك والناصر فرج :

وحدثت تطورات سياسية جديدة فى سلطنة المماليك عجلت بالصدام مع تيمورلنك ، فقد مات السلطان برقوق فى شوال سنة ٨٠١هـ/يونية ١٣٩٩ م وخلفه ابنه الناصر فرج الذى كان لا يزال طفلا فى حوالى العاشرة من عمره ، فنشبت الاضطرابات وكثرت الفتن والمؤامرات فى مصر وسوريا حتى استلزم الأمر خروج السلطان الناصر فرج مع جيشه من مصر فى حملة ضد تنم نائب دمشق الثائر[٣١] ، هذا فى الوقت الذى كانت البلاد فى أمس الحاجة الى سلطان قوى يستطيع صد الهجمة البربرية التى كان يعدها تيمورلنك على بلاد الشام ، بل ان السلطان العثمانى بايزيد الذى كان حليفا للظاهر برقوق استغل الظروف السيئة التى كانت تمر بها سلطنة المماليك آنذاك واستولى على ملطية وكانت داخلة ضمن النفوذ المصرى[٣٢] •

---

(29) Lucien B., op. cit., p. 52; Browne, op. cit., vol, 111 p- 191; Grousset, L'empire des steppes, p. 523—526;

وعن هذه الحملة انظر ايضا :

البدليسى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٦٧ ،

Spuler, op. cit., p. 107; M. Prawdın, op. cit., pp. 479-484; Grousset, Histoire de L'Asie, Tome 111, Le Monde Mongol, p. 119—120.

(30) Lucien B., op. cit., p. 53; Browne, op. cit., vol- 111, p, 194

(٣١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٧ • ١٩٩ — ٢٠٠ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ١ ق ٢ ص٥٤٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٦ ، ٥٧١ — ٥٧٩ ،

(٣٢) ابن الياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٥٤٧ ،

Wiet, op. cit., pp. 521—524.

وتذرع تيمورلنك بعدة أسباب للقيام بحملته على بلاد الشـــام ، فقد قام قرا يوسف التركمانى بحملة على منطقة وان فى أرمينيا ســـنة ٧٩٨ هـ/١٣٩٥ م وأسر أحد أقرباء تيمورلنك وهو الأمير أطلمش ، ثم أرسله الى القاهرة فظل محبوسا بها ، وعندما أرسل تيمورلنك الى الظاهر برقوق طالبا الافراج عن أطلمش رفض برقوق ذلك الطلب الا اذا أطلق تيمورلنك من جهته سراح الأمراء المماليك المعتقلين لديه(٣٣) . وكما سبق القول فان تيمورلنك بسبب مشاغله لم يستطع مواجهة برقوق . كذلك فان أحمد بن أويس بعد أن عاد الى عرشه فى بغداد نائبا عن الظاهر برقوق استغل الثورة التى نشبت ضد ميران شاه بن تيمـــورلنك فى اذربيجان والمناطق الأخرى الخاضعة له فى عراقى العرب والعجم ، استغل أحمد بن أويس هذه الثورة وغزا أذربيجان • وعندما وصلت تلك الأخبار كلها الى تيمورلنك أدرك أن الوقت قد حان لشن الهجوم الذى طالما فكر فيه على بلاد الشام والانتقام من المماليك(٣٤) •

وبدأ تيمورلنك حملته فى أوائل عام ٨٠٣ هـ / أغسطس ١٤٠٠ م بأن كلف بعض قادته بالزحف على بغداد • ونظرا لسوء ادارة أحمد بن أويس واسرافه فى قتل عدد كبير من اتباعه فقد نشبت فى تلك الظروف ثورة ضده فى المدينة أجبرته على الفرار منها لطلب المساعدة من قرا يوسف التركمانى . هذا فى الوقت الذى كان تيمورلنك قد وصل الى سيواس على رأس قواته • ولم يجد أحمد بن أويس وقرا التركمانى بعـــد أن أدركا خطورة العودة الى بغداد سوى الفرار فى اتجاه الشــــام ومنها الى الأناضول حيث طلب أحمد بن أويس اللجوء الى السلطان العثمانى بايزيد

---

(٣٣) ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ١ ص ٥٠٩ـ ٥٢٢ . ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ جـ ٢ ص ٤٥٣ ، وانظر ايضا : ابن قاضى شهبة • مصدر سابق جـ ٣ ص ٥٧٤ـ د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٢٩ •

Howorth, op. cit., part 111, p. 667; wiet , op. cit., p. 524.

(34) Lucien B., op. cit., p. 53.

خصم تيمورلنك[٣٥] . وعندما طلب تيمورلنك من السلطان العثمـانى تسليمه أحمد بن أويس رفض العاهل العثمانى فى عبارات لا ترضى غرور خصمه[٣٦] ، فأسرها تيموورلنك فى نفسه وأجل انتقامه الى ما بعد الانتهاء من معركته مع المماليك ، اذ قدر أن المناسب له القضاء أولا على القـوة التى قد تهدد مؤخرته فى حالة الحرب مع السلطان العثمانى بايزيد[٣٧] .

استيلاء تيمور لنك على حلب :

وزحف تيمورلنك من سيواس بعد أن نهبها الى ملطية فاستولى عليها ثم نزل على بهسنا ثم عينتاب فأحرق ضياعها وقتل معظم سكانها وذلك فى المحرم من سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠٠ م[٣٨] ، ومنها اتجه الى حلب فضرب مخيمه أمام أسوارها فى أوائل ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / أواخر كتوبر ١٤٠٠ م على رأس جيش ضخم[٣٩] . وأعلن تيمورلنك أسباب حملته العسـكرية

---

(٣٥) ابن قاضى شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط مصـور حوادث سنة ٨٠٢ هـ ص ١٦٢ ، سنة ٨٠٣هـ ص ١٧٠ ،

Howorth, op. cit., part 111, p. 668—669; M. Prawdin, op. cit., p. 490—491.

(36) Browne, op. cit., vol. 111, p. 196.

(37) M. Prawdin, op. cit., p. 491.

(٣٨) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٢٨ ، العينى : مصـدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٦٩—١٧٠ ، الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٧١—٧٢ ، وانظر ايضا :

ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢١٩ ، ابن اياس : مصدر سـابق جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٣ ،

Lucien B., op. cit., p. 55.

(٣٩) قدر أحد المؤرخين جيش تيمور لنك بسبعمائة الف رجل ، وهو تقدير قد تبدو فيه المبالغة انظر :

Champdor, op. cit, p. 170.

ومع ذلك فابن خلدون بعد مقابلته لتيمور لنك فى دمشق قدر عدد جيش تيمورلنك بأكثر من الف الف رجل: انظر : والترفشل : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ترجمة محمد توفيق ، ص ٨٥ .

وأهدافها فى رسالة بعث بها من معسكره فى بهسنا الى نائب دمشق سودون والى المشايخ والقضاة والأعيان فى المدينة قال فيها : « بأنه قدم فى عام أول الى العراق يريد أخذ القصاص ممن قتل رسله بالرحبة ، ثم عاد الى الهند لما بلغه بما ارتكبوه من الفساد فأظفره الله بهم . فبلغه موت الظاهر فعاد وأوقع بالكرج ، ثم قصد لما بلغه قلة أدب هذا الصبى — ابى يزيد بن عثمان — أن يعرك أذنه ، ففعل بسيواس وغيرها من بلاده ما بلغكم . ثم قصد بلاد مصر ليضرب بها السكة ويذكر اسمه فى الخطبة ، ثم يرجع بعد أن يقرر سلطان مصر بها . وطلب أن يرسل اليه أطلمش ليدركه اما بملطية أو حلب أو دمشق ، والا فتصير دماء أهل الشام وغيرهم فى ذمتكم »[٤٠] . غير أن سودون نائب دمشق لم يفزع لذلك التهديد بل أمر بقتل رسل تيمور لنك[٤١] .

واستعمل تيمور لنك الدهاء والدبلوماسية مع خطواته الحربية ، اذ عمل على بذر بذور الشقاق فى صفوف المماليك فى الشام . فأرسل سفيرا من قبله الى الأمير دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره فى نيابته ، ويطلب منه فى نفس الوقت القبض على سودون نائب دمشق لأنه قتل سفير تيمور لنك الذى توجه اليه من قبل . فلما أخبر دمرداش باقى الأمراء الذين قدموا من سائر أنحاء بلاد الشام . قال سفير تيمورلنك لدمرداش « ان الأمير — أى تيمورلنك — لم يأت البلاد الا بمكاتبتك اليه،

---

(٤٠) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣١ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص٥٩٥—٥٩٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢١٩— ٢٢٠ مع اختلاف بسيط فى بعض الألفاظ دون المعنى .

(٤١) ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٣ . العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٠،١٧٣ ،

Hilda, op. cit., p. 223.

وقد اشارت المصادر الفارسية الى خطاب من تيمور لنك كتبه من ملطيه فى شهر المحرم من سنة ٨٠٣ هـ الى الناصر فرج ، ينكر فيه قتل الظاهر برقوق السفراء دون سبب وحبسه أطلمش — من رجال بلاط تيمور لنك — انظر :ص الخطاب وترجمته فى : د. حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ص ١٧٢ .

وأنت تستدعيه أن ينزل على حلب ، وأعلمته أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنهـا »[٤٢] ، فحنق منه دمرداش وأمر بضرب عنقه[٤٣] ، ويبـدو أن دمرداش كان يعتقد أن قوات المماليك قادرة على الوقوف فى وجه تيمورلنك ومنعه من مواصلة غزو الشام ، وهذا دليل على سوء تقدير أمراء المماليك لقوات تيمورلنك من ناحية ، وعدم ادراكهم لحالة التفكك التى سـادت الجيش المملوكى فى عهد الناصر فرج من ناحية ثانية ، هذا فضلا عن عجزهم عن كشف أخبار وتحركات تيمور لنك[٤٤] .

وكان دمرداش المحمدى نائب حلب قد استنجد بنواب المدن الشامية الأخرى مثل دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة ، وقد اختلفت آراء هؤلاء فى بداية الأمر فى كيفية مواجهة تيمورلنك وقتاله داخل مدينـة حلب أو خارجها الى أن استقر أمرهم فى نهاية الأمر على الخروج الى ظاهر المدينة . وبوجه خاص بعد أن تأخر حضور السلطان الناصر فرج وقواته[٤٥] . وبعد مناوشات من سكان المدينة الذين ركبوا أسـوارها خرجت قوات المماليك واشتبكت مع قوات تيمورلنك فى قتال عنيف ، غير أن القتال لم يكن متكافئا ، فنجح تيمورلنك فى انزال الهزيمة بالمماليـك

---

(٤٢) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢١ ، المقريزى : مصـدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ،

Wiet, Op. cit., p. 526 ; De Mignanelli, vita Tamerlani p. 211,, Note I, in «oriens vol. 9,» 1956.

(٤٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢١ ، ابن اياس : مصـدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٦ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٤٤) هارولد لامب : تيمورلنك ص ١١٨ .

(٤٥) ابن عربشـاه : مصدر سابق ص ٩٥ ، العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص : ١٧٣—١٧٥ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٠—٢٢١ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٦ ، وانظر أيضا : د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٣٣ ؛

De Mignanelli, vita.., p. 210.

وانظر القسم الثانى من هذا الكتاب ص ١٠ .

وأخذ يتتبعهم الى داخل حلب قتلاً وأسرا ، فضلا عما هلك من قوات المماليك المفلولة تحت حوافر الخيل(٤٦) .

واقتحمت قوات تيمورلنك مدينة حلب فى ١١ ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ / ٢ نوفمبر ١٤٠٢ م وأشعلت فيها النيران ، وظلت أربعة أيام تعيث فسادا داخل المدينة ، فقتلت الأطفال جميعا وأسرت النساء ، وارتكبت الفاحشة ، ثم وضعت السيف فى كل السكان دون تمييز حتى امتلأت المساجد والطرقات بالقتلى ، كما أسرت قوات تيمورلنك الأمراء المماليك الذين اجتمعوا بقلعة المدينة ، فأمر تيمورلنك بحبسهم جميعا(٤٧) ، غير أن دمرداش المحمدى نائب حلب لقى معاملة كريمة من قبل تيمورلنك(٤٨) . وبعد أن تم نهب كنوز المدينة أعملت قوات تيورلنك معاول الهدم فيها ، ثم أشعلت النيران حتى أصبحت حلب موحشة مظلمة تنعى أطلالها(٤٩) .

---

(٤٦) العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٤— ١٧٥ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق جـ ٤ مخطوط سنة ٨٠٣هـ ص ١٧٢— ١٧٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٢—٢٢٣ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٧ . وقد أشار دى مجنانللى فى روايته الى أن قوات تيمور لنك تظاهرت بالفرار ، وفتحت ثغرة لقوات المماليك وسمحت لها بالتوغل داخل خطوطها ، ثم أطبق جنود تيمور لنك عليهم من كل جانب وتم تدمير الجزء الأكبر من قوات المماليك وأسر الباقى . انظر : القسم الثانى ص ١٠ ،

De Mignaneili, Vita., p. 210.

(٤٧) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٣—٢٢٥ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٨ . وانظر أيضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٦٠ .

(٤٨) ومن أجل تلك المعاملة اتهم دمرداش بموافقة تيمورلنك فى الباطن ، واعتبر خائنا . انظر : ابن عربشاه : مصدر سابق ص ٩٢ ، القسم الثانى ص ١١ ، De Mignanelli vita.., p. 210-211.

(٤٩) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣—١٠٣٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص : ٢٢٤—٢٢٥ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٨—٥٩٩ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣٥ ، الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٧٤—٧٧ .

وغادر تيمورلنك وقواته مدينة حلب بعد أن أقاموا فيها شهرا ، واتجهوا الى دمشق ، هذا فى الوقت الذى كان ميران شاه بن تيمورلنك قد استولى على حماه فى ١٤ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / ٥ نوفمبر ١٤٠٠ م وفعل فيها مثلما فعل أبوه فى حلب(٥٠) ، كما استولى رجال تيمورلنك أيضا على حمص وبعلبك ، وقد عفا تيمورلنك عن حمص احتراما لقبر خالد بن الوليد، فى حين نهب بعلبك رغم طلب أهلها الصلح والأمان ، ووصلت فرسان تيمورلنك حتى منطقة ساحل البحر المتوسط حيث نهبت صيدا وبيروت(٥١) .

واتسم موقف السلطان الناصر فرج والأمراء المماليك فى القاهرة من أحداث الشام فى تلك الفترة بالعجز الشديد والقصور عن الادراك السليم لجسامة الخطر الذى يهدد سلطنة المماليك بأسرها ليس فقط فى بلاد الشام بل فى مصر أيضا . ومع أن نواب البلاد الشامية أرسلوا التحذيرات المتتالية الى القاهرة منذ وصول طلائع قوات تيمورلنك الى عينتاب(٥٢) ، فان السلطان فرج وحاشيته لم يضعوا الخطط الفورية لمواجهة الغزاة ، بل تشاغل السلطان عن ذلك « بشرب الخمر وسماع الزمور حتى تمكن تيمورلنك من البلاد ، وعم فيها الفساد »(٥٣) ، كما أن أحد الأمراء سعى الى اثارة الفتنة فى مثل تلك الظروف الصعبة(٥٤) ،

---

(٥٠) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٥—٢٢٦ ، المقريزى : مصدر سابق جـ٣ ق٣ ص ١٠٣٥ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ١ ق٢ ص ٦٠٠—٦٠١ .

(51) Hilda op. cit., pp. 226-229 ; Lucien B., Op. cit , p. 56 ; Champdor, op. cit., pp. 175-178 ; Wiet, op.cit., p. 528, Grousset, L'empire des steppes, p. 527.

(٥٢) المقريزى : مصدر سابق جـ٣ ق٣ ص ١٠٢٧—١٠٢٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢١٨ ، الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٧٣ ، وانظر أيضا : والتر فشل : لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ، ترجمة محمد توفيق ص ٩٢ تعليق رقم (٥) .

(٥٣) ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠١ . وقد وصف السخاوى الناصر فرج بأنه كان (فتاكا ظالما جبارا منهمكا على الخمر واللذات طامعا فى اموال الرعايا) . انظر : السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ١٦٨ .

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢١٨ .

كذلك فان السلطان وحاشيته رفضوا دعوة السلطان العثمانى بايزيد لاجتماع الكلمة وتكوين حلف ضد تيمورلنك ، بحجة أن السلطان العثمانى استغل وفاة الظاهر برقوق واستولى على ملطية وكانت خاضعة لسلطنة المماليك[٥٥] ، وكان رفض المماليك التحالف مع السلطان العثمانى بايزيد قرارا خاطئا لأنه أتاح فرصة ذهبية لتيمورلنك لمواجهة أعدائه كل على حدة، هذا فضلا عما كان فيه الأمراء المماليك فى القاهرة آنداك من صراع وتنافس ورغبة كل منهم فى الوصول الى منصب السلطنة وابعاد غيره عنها بصرف النظر عن صالح الدولة[٥٦] .

وتكررت تحذيرات نواب الشام واستنجادهم بالسلطان فرج ، فاستدعى السلطان الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة فى المحرم سنة ٨٠٣ هـ/أغسطس ١٤٠٠ م للتشاور فى جمع الأموال من التجار والاستيلاء على نصف الأوقاف لانفاقها فى اعداد القوات العسكرية اللازمة لحرب تيمورلنك ، ولكن القضاة اعترضوا على تلك الاجراءات . وتقرر أخيرا ارسال مبعوث خاص الى بلاد الشام هو الأمير اسنبغا الدوادار لكشف الأخبار وتعبئة قوات الشام[٥٧] . ومع أن مبعوث السلطان الى بلاد الشام أيد فى تقاريره أنباء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام ،

---

(٥٥) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢١٧ـــ٢١٨ ،

Hilda, op cit., p. 224.

(٥٦) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢١٧ـــ٢١٨ .

(٥٧) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢١٨ ، ويصف الموقف السياسى فى القاهرة بقوله : « ووقع التخذيل والتقاعد لاختلاف الكلمه وكثرة الآراء » .

وانظر ايضا : المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٢٩ ، العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٠ـــ١٧١ ، ابن قاضى شهبة: مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط مصور سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧١ ، ابن حجر . مصدر سابق جـ٢ ص ١٣٤ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ١ ق ٢ ص ٥٩٢ — ٥٩٤ ، والتر فشل : لقاء ابن خلدون .. ص ٩١ـــ٩٢ تعليق رقم (٥) ،

Wiet, op. cit., p. 526.

وورود الأخبار الى القاهرة فى أواخر ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / نوفمبر ١٤٠٠ م باستيلاء تيمورلنك على حلب ، الا أن السلطات الحاكمة فى مصر لم تتخذ اجراءات التعبئة العسكرية الفورية بل حاولت التنصل من المسئولية بتكذيب تلك الأخبار والقبض على مروجها ليعاقب على افترائه. وكان موقف رجال الدين فى مصر على عكس ذلك تماما ، اذ طاف شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى مع القضاة فى شوارع القاهرة ونادوا فى الناس بالجهاد فى سبيل الله ضد العدو الذى أخذ البلاد وقتل الأطفال على صدور الأمهات وخرب الدور والمساجد(٥٨) ، فاشتد حزع الناس واتهموا السلطان والأمراء بالتقصير فى الدفاع عن الدولة(٥٩) .

وعاد مبعوث السلطان الناصر فرج من مهمته فى بلاد الشام الى قلعة الجبل فى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ وقدم تقريرا الى السلطان باستيلاء تيمورلنك على حلب وقلعتها بالتواطؤ مع نائبها الأمير دمرداش(٦٠) ، وفى ذلك الوقت فقط شعر الناصر فرج بخطورة الموقف واستعد للحرب وأصدر أوامره لأمرائه بتعبئة قواتهم ، وعرض أجناد الحلقة وجمع الخيول والجمال ، وطلب العربان من الوجهين القبلى والبحرى للاشتراك فى قتال تيمورلنك . ثم تحرك السلطان بقواته فى الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٤٠٠ م ، أى أنه أضاع من الوقت حوالى ثلاثة أشهر دون أن يقوم بأى عمل جاد منذ بدء

---

(٥٨) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٥ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠١ .

(٥٩) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٩ .

(٦٠) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٩ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٧ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠١ — ٦٠٢ .

هجوم تيمورلنك على بلاد الشام[٦١] • ويضاف الى ذلك اختلاف الأمراء على السلطان وعجزه عن وضع خطة عسكرية ناجحة للدفاع عن الدولة • وقد اقترح الأمير تغرى بردى أن يذهب بنفسه الى دمشق لتحصينها والدفاع عنها ضد تيمورلنك ، على أن يظل السلطان الناصر فى معسكره بغزة يمده بالقوات دفعة بعد أخرى ، فاذا واصل تيمورلنك زحفه الى مصر وقع بين قوات دمشق التى يقودها تغرى بردى وبين قوات السلطان الناصر فرج فى غزة ، غير أن باقى الأمراء اعترضوا على تلك الخطة وشككوا فى اخلاص الأمير تغرى بردى للسلطان ، بل وذكروا للسلطان أن الأمير تغرى بردى قد يتفق مع تيمورلنك عليه[٦٢] •

وكان تيمورلنك قد أرسل سفراءه الى القاهرة فى أثناء حصاره مدينة حلب متظاهرا بطلب السلام وعقد الهدنة مع الناصر فرج ، غير أن هدف تيمورلنك الحقيقى كان التجسس على أحوال السلطان وبذر بذور الشقاق بين أمراء المماليك فى مصر ، فقد عرض سفراء تيمورلنك شروطا مهينة على السلطان هى : أن تحمل العملات الذهبية التى تسك فى أراضى السلطان فرج اسم تيمورلنك ، وأن يدفع السلطان مبلغا كبيرا من المال ، وأن تقام الخطبة فى المساجد باسم تيمورلنك • ويبدو أن السلطان وحاشيته قد رفضوا تلك الشروط ، فعادت السفارة بعد مفاوضات استمرت حوالى شهرين (صفر وربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / أكتوبر ونوفمبر ١٤٠٠م)

---

(٦١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٧ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٢، العينى : عقد الجمان مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٩ ، وانظر ايضا : والتر فشل : لقاء ابن خلدون ص ٩٣ تعليق رقم (٥) ،

Wiet., op. cit., p. 529.

(٦٢) ابن تغرى بردى : النجوم .. جـ ١٢ ص ٢٣١—٢٣٢ . الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨١ .

وهى تحمل رد السلطان الناصر فرج ومعها أيضا تقرير عن نشاطها فى التجسس فى القاهرة واستعدادات الناصر فرج للحرب(٦٣) .

---

(63) De Mignanelli, vita.., p. 212-213, 214;

القسم الثانى ص ١٤، ١٧ .

وانظر ايضا :

Piloti, l'Egypte au Commencement du Quinzieme Siecle, p. 120 ;

ويبدو أن تلك السفارة هى التى اشار اليها كلافجو السفير الاسبانى الى تيمورلنك انظر :

Clavijo, Embassy to Tamerlane, 1403-1406, p. 43.

ومن الجدير بالذكر ان المصادر العربية لم تتحدث عن وصول مثل تلك السفارة الى القاهرة فى ذلك الوقت ، بل اشارت الى ان طلب الصلح جاء الى السلطان فرج بعد وصوله الى دمشق فى جمادى الأولى ٨٠٣ هـ . أما المصادر الفارسية فانها ذكرت كتاب تيمورلنك الى السلطان فرج فى جمادى الاولى سنة ٨٠٣ هـ يطلب فيه ارسال أطلمش وضرب السكة واقامة الخطبة باسم تيمورلنك ولقبه والا فانه سيستولى على الديار . كما أوردت المصادر الفارسية أيضا — شرف الدين على يزدى فى كتابه ظفرنامه — رد الناصر فرج على الخطاب وتذكر استجابته لطلبات تيمورلنك على النحو التالى « نحن عبيد فى مقام الطاعة والانقياد ، وسنرسل أطلمش فى خلال خمسة أيام ، فاذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فاننا لن نهمل أو نقصر فى اداء وظائفنا وأطاعة الأوامر واظهار الخضوع وسنفعل كل ما فى مكنتنا ومقدورنا لارضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية » انظر : د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٧٣ — ١٧٥ .

غير ان تطور الأحداث التاريخية لا تؤيد ما ورد فى المصادر الفارسية لأن الناصر فرج عبأ جيشه وذهب الى الشام لمحاربة تيمورلنك ، كما لم يفرج الناصر فرج عن أطلمش الا عام ٨٠٥ هـ وبعد انتصار تيمورلنك على السلطان العثمانى بايزيد . انظر : الخطيب الجوهرى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٥٩ حوادث سنة ٨٠٥ هـ .

أستيلاء تيمورلنك على دمشق وتخريبها :

وواصل تيمورلنك زحفه على دمشق وأرسل الى نائب الغيبة بهـا يدعوه للاستسلام فاضطرب السكان وبوجه خاص بعد سماع قصص التعذيب والتنكيل التى أذاعها الهاربون من المناطق التى استولى عليها تيمورلنك ، وفى تلك الظروف وصل الناصر فرج الى دمشق فى السادس من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ/٢٣ ديسمبر ١٤٠٠ م ، وضرب مخيمه عند قبة يلبغا بظاهر المدينة وأخذ فى الاستعداد لمواجهة تيمورلنك الذى أقام معسكره على قبة السيار غربى قبة يلبغا بحوالى الميلين وأخذ فى مراقبة الناصر فرج(٦٤) . وأسفرت المناوشات الأولى بين الجانبين عن هزيمة كبيرة لمقدمة جيش تيمورلنك ، الا أنه نصب كمينا لقوات الناصر فرج أسفر عن مقتل عدد كبير منها ، ومع ذلك فلم يتمكن تيمورلنك فى ذلك الوقت من اقتحام مدينة دمشق(٦٥) . واستخدم تيمورلنك أساليب الدهاء والشائعات للتمويه على الناصر فرج وقواته ، فأشاع خمسة من جواسيسه الذين وصلوا طرابلس بأن نصف جيش تيمورلنك عازم على الدخول فى طاعة السلطان فرج ، وأن ملك قبرس سيقدم المساعدة للسلطان . كما

---

(٦٤) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٧ ، ٢٣٢—٢٣٣ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٠—١٠٤١ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ ، والتر فشل : لقاء ابن خلدون ص ٧٠ ، ص ١٠٠ تعليق رقم (١٩) ،

Wiet, op. cit., p. 529.

(65) De Mignanelli, Vita.., p. 215-216.

والمصادر العربية مختلفة فى تحديد التواريخ الدقيقة لهذه المعارك ، وبرجع ذلك الى الاختلاف بين تاريخ وقوع المعركة وبين تاريخ وصول الخبر الى القاهره ، ويمكن القطع بحدوثها خلال شهر جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / أواخر ديسمبر وأوائل يناير ١٤٠١ م ، ويشير دى ميجنانللى De Mignanelli الى وقوع معركة بين الجانبين فى يناير سنة ١٤٠١ م . انظر المصادر العربية التالية : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٣—٢٣٥ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤١—١٠٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٦ ، العينى : مصدر سباق مجلد ٢٧ ص ١٨١ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق مخطوط مصور جـ ٤ ص ١٧٦ ، الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨٢—٨٣ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ١٩ ، ٢٠ .

أشاع تيمورلنك بأنه راحل عن دمشق ، بل ان ابن أخته جاء الى معسكر السلطان فرج وأدعى أنه اختلف مع خاله ، وأن أمر تيمورلنك فى التلاشى[٦٦] .

ويبدو أن تيمورلنك أدرك بدهائه وعن طريق جواسيسه أيضا اختلاف الأمراء المماليك على السلطان الناصر فرج فأراد توسيع شقة ذلك الخلاف، فأرسل الى السلطان طالبا الصلح على أن يطلق الناصر فرج سراح الأمير أطلمش مقابل الافراج عن الأمراء المماليك المقبوض عليهم فى معركة حلب[٦٧] . وصح ما توقعه تيمورلنك اذ دب الانقسام فى صفوف قوات الناصر فرج ، اذ رأى فريق مواصلة القتال ، وقد ظن ذلك الفريق أن تيمورلنك قد طلب الصلح لعجزه عن قتالهم[٦٨] ، فى حين رأى فريق آخر الاستجابة لطلب تيمورلنك ووقف القتال[٦٩] . ونتيجة لذلك الانقسام فى الرأى فان فريقا ثالثا قد أيقن بحلول الهزيمة وقرب زوال دولة الناصر فرج ، وبادر ذلك الفريق بالاختفاء من المعركة[٧٠] . ثم أشيع فى دمشق أن الأمراء الهاربين قد توجهوا الى مصر لكى يسلطنوا الأمير لاجين الجركسى ، فأسرع السلطان وباقى الأمراء بمغادرة دمشق فى الحادى

---

(٦٦) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٣٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٤ ، ابن عربشاه : مصدر سابق ص ١٠٤ـــ١٠٥ ، العينى، مصدر سابق مجلد٢٧ ص١٨١ ، الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ٢ ص ٨٢، Wiet, op. cit., p. 529.

(٦٧) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٥ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٨٢ .

(٦٨) ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٦٩) ومن هؤلاء الأمير تغرى بردى ، انظر : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٥ .

(٧٠) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٥ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ابن عربشاه : مصدر سابق ص ١٠٤ـــ١٠٥ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

والعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / ٧ يناير ١٤٠١ م لتدارك الأمر فى القاهرة ، وتركوا دمشق بلا قيادة تنظم أمورها أو قوات تدافع عنها(٧١) . وقد نهبت العشائر قوات المماليك فى أثناء انسحابها الى مصر وسلبوا ما معهم من أموال وأسلحة وأمتعة(٧٢) .

وواجه سكان دمشق بعد رحيل الناصر وقواته موقفا حرجا ، فأغلقوا أبواب المدينة ، وتسلقوا أسوارها ونادوا بالجهاد ، بل ونجحوا فى صد هجوم لقوات تيمورلنك عليها . وأدرك تيمورلنك أن اعمال الحيلة أجدى له فى الاستيلاء على المدينة من محاولة اقتحامها ، فقد كان غرضه دخول دمشق بأقل خسائر ممكنة . ومن أجل ذلك أرسل تيمورلنك رجلين من أتباعه يعرضان على سكان دمشق قبول الصلح(٧٣) . وبعد مناقشات وخلافات بين زعماء المدينة وافق هؤلاء على ارسال القاضى ابن مفلح الحنبلى الى تيمورلنك من أجل المفاوضة على شروط التسليم ، فاستعمل تيمورلنك أسلوب الخداع مع القاضى ابن مفلح ، اذ وعده بالانسحاب بعد تقديم سكان دمشق « الطقزات » أى الهدايا وفقا لعادات

---

(٧١) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٦—٢٣٧ ، جـ ١٣ ص ١٥٨ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ ، العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٣ ، ابن قاضى شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٧ ،

Champdor, op. cit., p. 183.

(٧٢) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٧—٢٣٨ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٤—١٨٥ ، ابن حجر : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣٧ ، القسم الثانى ص ٢٢ ، De Mignanelli, Vita.., p. 217.

(٧٣) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦١٠ ، ابن حجر العسقلانى مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣٧ .

المغول[٧٤] . وكان مما قاله تيمورلنك للقاضى ابن مفلح « هذه بلد الأنبياء وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عن أولادى »[٧٥] ، غير أن نائب قلعة دمشق لم يوافق على شروط تيمورلنك وصمم على القتال ، وأغلق أبواب المدينة حتى اضطر القاضى ابن مفلح ووفد من أعيان المدينة الى النزول فيما بعد من على الأسوار[٧٦] . وامعانا فى الخديعة منح تيمورلنك أهالى دمشق أمانا شريطة أن يدفعوا له مبلغ مليون دينار . وقد عهد الى موظفين من أعيان دمشق وقضاتها بجمع الأموال المطلوبة ، وطلب فتح أبواب المدينة ، وعين نائبا عنه فى حكم دمشق[٧٧] . وقد انطلت خدعة تيمورلنك على القضاة والأعيان ، فراحوا يروجون الأخبار عن محاسنه وتقواه . وحثوا الناس على جمع الأموال[٧٨] ، وذكروا عنه أنه زار قبر أم حبيبة احدى زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما زاره قال « : يا أهل الشام مثل هذا القبر يكون بلا قبة عليه ؟ فأنا ان شاء الله تعالى أبنى عليه قبة » ، وذكروا عنه أيضا « أنه

---

(٧٤) ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ ، ابن تغرى بردى: النجوم ج ١٢ ص ٢٣٩ .

(٧٥) ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ . وللمزيد من المعلومات عن القاضى ابن مفلح انظر : ابن طولون : « الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام » ص ٢٨٨—٢٨٩ .

(٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١١ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

(٧٧) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠—٢٤١ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١١—٦١٢ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ .

وقد أشار دى ميجنانللى الى ان تيمورلنك طلب من القضاة دفع مبلغ مليون وستمائة الف دراخمة قدرها دى ميجنانللى بما يعادل ثمانمائة الف من الدوكات الايطالية فى . عصره انظر : القسم الثانى ص ٢٩ ،
De Mignanelli, vita., p. 221.

(٧٨) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠ .

كان فى مجلسه يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه ، وأن السبحة لا تزال فى يده »[٧٩] . وفى ذلك الوقت عندما كان تيمورلنك فى معسكره خارج المدينة التقى به المؤرخ المشهور ابن خلدون وأجرى معه مناقشات فى كثير من الموضوعات التاريخية والدينية ، وتشفع ابن خلدون لدى تيمورلنك فى بعض مواطنى دمشق ، فأجابه تيمورلنك الى طلبه[٨٠] .

وجمع القضاة والأعيان المبلغ الذى طلبه تيمورلنك ، لكنه لم يقتنع به ، وألقى القبض عليهم وحبسهم حتى التزموا بجمع مبلغ عشرة ملايين دينار ذهبا ، ثم أصدر أوامره لقواته بمحاصرة قلعة دمشق حتى استسلمت بعد قتال شديد استمر تسعةوعشرين يوما رغم قلة عدد المقاتلين فيها[٨١] . ومرة أخرى رفض تيمورلنك المبلغ الذى جمعه القضاة والأعيان بمشقة زائدة من سكان دمشق ومن أوقاف المساجد والمدارس والمشاهد والربط والزوايا وبلغ عشرة ملايين دينارا ذهبا ، وذلك بحجة اختلاف العملة وفسادها ، وقدر ذلك المبلغ بثلاثة ملايين فقط . كما صادر أموال وممتلكات الناصر فرج والقوات المصرية بأسرها من أسلحة ودواب ، كما استولى على أموال كل من هرب من سكان دمشق[٨٢] . وألزم تيمورلنك القضاة والأعيان بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها ، كما قام مندوبون عنه

---

(٧٩) ابن أياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦١١ .

(٨٠) للمزيد من التفاصيل عن ذلك اللقاء انظر : ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٨—٣٧٤ ، والتر فشل : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة محمد توفيق .

(٨١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٢—٢٤٣ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦١٢ . ابن حجر مصدر سابق جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٨٢) المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٣ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦١٣—٦١٤ . وانظر أيضا : القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٢٤ ، ٢٩—٣٠ ،
De Mignanelli, Vita .., p. 221-223.

باثبات البضائع والأموال التى لدى التجار فى قوائم جرد[٨٣] • وبعد أن وزع أحياء المدينة على أمرائه أطلقهم داخلها بأتباعهم وحواشيهم فعاثوا فيها فسادا وطلبوا لأنفسهم أموالا ضخمة ، ولما عجز السكان عن السداد أنزل جنود تيمورلنك بهم أقسى أنواع العقوبات من الضرب والعصر والحرق وارتكاب الفاحشة • ثم دخل بعض هؤلاء الأمراء وأتباعهم الى المدينة وسيوفهم مسلولة مشهورة فمارسوا النهب والسبى قدر استطاعتهم • وأخيرا أضرموا النار فى المنازل والمساجد لا سيما جامع بنى أمية الذى تهدمت سقفه وحوائطه ، وهلك معظم سكان المدينة الذين كان يقدر عددهم آنذاك بمائة ألف مواطن[٨٤] ، وقد شاهد الرحالة الأوروبى بروكيير Brocquiere الذى زار دمشق بعد ثلاثين سنة من هجوم تيمورلنك عليها ، شاهد آثار التدمير فى قلعة المدينة ، كما أن أحد أحيائها كان لا يزال متهدما لم يتم بناؤه بعد • أما الحى المسيحى فى شرقى دمشق فكان الحى الوحيدالذى لم تمتد اليه يد التخريب[٨٥] •

وأخيرا غادر تيمورلنك مدينة دمشق يوم السبت الثالث من شهر شعبان سنة ٨٠٣ هـ/١٩ مارس ١٤٠١ م مصطحبا معه فى عودته كل الحرفيين والعمال المهرة الذين حفلت بهم دمشق بعد أن قبض عليهم ، وبذلك فقدت دمشق قدرتها الصناعية والاقتصادية لفترة طويلة ؛ ومما

---

(٨٣) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ ، ابن حجر : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ ، وانظر ايضا :

ابن عربشاه : مصدر سابق ص ١٠٩ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٢٦ ؛

De Mignanelli, Vita..., p. 220.

(٨٤) ابن عربشاه : مصدر سابق ص ١١٦—١١٧ ؛ ابن خلدون : التعريف ص ٣٧٤ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٣٥ ، De Mignanelli, Vita.., p. 226.

(85) Thomas Wright, early Travels, p. 294, The travels of B. de la Brocquiere, A.D. 1432-1433.

يدل على حجم تلك الخسارة أن أحد الحجاج الغربيين عندما زار دمشق مع بعض رفقائه فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى من أجل شراء حرير سورى قيل له أن الحرير الموجود مستورد من البندقية(٨٦) .

أما السلطان الناصر فرج فقد شرع بعد عودته الى القاهرة فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٠٣ هـ / يناير ١٤٠١ م فى تجهيز قوات جديدة لارسالها الى دمشق ، ومن أجل ذلك أذن الناصر فرج للامير يلبغا السالمى فى جمع الأموال المطلوبة ، فتعسف يلبغا فى ذلك تعسفا شديدا حتى فرض على سائر أراضى مصر المقطوعة للسلطان والأمراء والأجناد عن عبرة كل ألف دينار خمسمائة درهم فضة ، كما أخذ من سائر أراضى البر والصدقة عن كل فدان عشرة دراهم ، كما جبى من أصحاب العقارات فى القاهرة أجرة شهر ، هذا فضلا عن المصادرات التى تمت للفنادق والحواصل(٨٧) . وكان الناصر فرج يتوقع معركة جديدة مع تيمورلنك، فلم يتوقف عن الاستعدادات الحربية . وعلى الرغم من معارضة بعض الأمراء للناصر فرج مثل الأمير جكم ، فان الناصر كان على وشك ارسال جيشه مرة أخرى الى الشام لولا وصول الأمير شيخ المحمودى نائب

---

(٨٦) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٤—٢٤٥ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥٠—١٠٥١ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق٢ ص ٦١٤—٦١٧ ، القسم الثانى من هذا الكتاب ص ٤١ ،

De Mignanelli, vita.., p. 229 ; Champdor, op. cit., p. 123;

Lucien Bouvat, op. cit., p. 57 ; Helda, op. cit., p. 235.

وانظر ايضا اشارة كلافجو عن هجوم تيمورلنك على دمشق ونقل الحرفيين منها الى سمرقند فى .

Clavijo, op. cit , p. 134 ;

د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٦١ .

(٨٧) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٦—٢٤٨ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥٢ ، ابن اياس : مصدر سابق جا ق٢ ص٦١٩ .

طرابلس هاربا من أسر تيمورلنك وأبلغ عن رحيله من دمشق ؛ فأبطل الناصر فرج أمر السفر[٨٨] .

وقد غادر تيمورلنك دمشق للتحضير لصدام كبير مع السلطان العثمانى بايزيد ، ثم استطاع تيمورلنك أن يلحق بخصمه الكبير هزيمة ساحقة وأسره فى معركة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ/١٤٠٢ ثم أرسل بعدها الى الناصر فرج طالبا الافراج عن الأمير أطلمش . فكان طبيعيا أن يستجيب الناصر هذه المرة لطلب تيمورلنك الذى أصبح أكبر قوة عسكرية فى غربى آسيا ، فخلع الناصر فرج على أطلمش وجهزه وأعاده الى بلاده[٨٩] ، ثم تلى ذلك وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م فتخلصت بذلك دولة المماليك من عدو خطير أوشك على الاحاطة بها .

---

(٨٨) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٥٢ ، المقريزى : مصدر سابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥٧ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ١ ق ٢ ص ٦٢٣ .

(٨٩) الخطيب الجوهرى : مصدر سابق جـ ٢ ص ١٥٩ ؛

Hilda, op. cit., p. 238-239.

وقد أشار كلافجو السفير الأسبانى الى تيمورلنك الى سفارة من الناصر فرج الى تيمورلنك تقابلت مع السفير الأسبانى فى مدينة خوى khoy وكانت هذه السفارة تتكون من عشرين فارسا وخمسين جملا ، وتحمل هدايا أرسلها الناصر فرج الى تيمورلنك تشتمل على ست من النعام Six Ostriches ، وزرافة أنظر :

Clavijo, op. cit., p. 149.

خاتمـــة

ان دراسة حملة تيمورلنك على بلاد الشام فى أوائل القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى قد أظهرت عدة حقائق تاريخية نوجزها فيما يلى :

١ — أوضحت الدراسة كيف تمكن تيمورلنك من الاســتيلاء على السلطة فى اقليم ما وراء النهــر ثم نجاحه فى القضــاء على الدويلات المستقلة فى غربى آسيا التى نشأت على انقاض دولة مغول فارس ، ومن ثم شرع تيمورلنك فى تأسيس امبراطورية مغولية كبيرة سارت على نفس سياسة الامبراطورية المغولية التى أسسها جنكيزخان من قبــل ، وهى السياسة العنصرية القائمة على الفتح والتوسع واخضاع الدول وارهاب الشعوب ، بل ومحاولة السيطرة على العالم •

٢ — أوضحت الدراسة أيضا السبب المباشر لتوتر العــلاقات بين تيمورلنك والسلطان المملوكى الظــاهر برقوق وهــو هروب الســلطان الجلائرى أحمد بن أويس الى مصر ورفض الظاهر برقوق تسليمه الى تيمورلنك • كما كشفت الدراسة أيضا عن السبب الحقيقى لعداء تيمورلنك لسلطنة المماليك ، وهو رغبة تيمورلنك فى اخضاع هذه السلطنة لنفــوذه بل وضمها الى امبراطوريته ، ويتضح ذلك من طلباته الى المماليك باقامة الخطبة باسمه ونقش اسمه على السكة •

٣ — أوضحت الدراسة أيضا مقدرة الظاهر برقوق فى ادارة الصراع السياسى والعسكرى مع تيمورلنك : ويتمثل الجانب السياسى فى العلاقات الوثيقة التى أقامها الظاهر برقوق مع كل من السلطان العثمانى بايزيد وطقتمش خان القفجاق ، وقد خشى تيمورلنك بالفعل من ذلك التحــالف الثلاثى : فلم يجرؤ على عبور الفرات ومهاجمة بلاد الشام سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م رغم هزيمة مقدمة جيشه على يد المماليك •

٤ — أوضحت الدراسة أيضا ضعف شخصية الناصر فرج بن برقوق وسيطرة الأمراء عليه وعجزه العسكرى عن ادارة الحرب ضد تيمورلنك، بل وعجـزه السـياسى فى رفضه التحالف مع السلطان العثمـانى بايزيد، مما مكن تيمورلنـك من مواجهـة كل فريـق على حـدة وأنزل به الهزيمة •

٥ — أوضحت الدراسة أيضا أسلوب تيمورلنك فى الخداع وحبه الشديد للتدمير والخراب وابتزاز الأموال وسفك الدماء ، ويتبين ذلك من استيلاء تيمورلنك على حلب ودمشق سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠٠ م — ١٤٠١ م ، وكيف تدهورت هاتان المدينتان من الناحية الاقتصادية نتيجة للتخريب الذى لحق بهما •

المصادر والمراجع

(أ) المصادر العربية والفارسية المعربة

١ — ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصرى ت ٩٣٠ هـ

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الجزء الأول القسم الثانى ، تحقيق محمد مصطفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٢ — ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١٢ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ؛ وجـ ١٣ تحقيق فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

٣ — ——————— :

الدليل الشافى على المنهل الصافى. جـ١ ، جـ ٢ تحقيق فهيم محمد شلتوت — جامعة أم القرى ١٩٨٣ م .

٤ — ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢ هـ

أنباء الغمر بأبناء العمر — ثلاثة أجزاء ، تحقيق د. حسن حبشى. لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٩—١٩٧٦ م .

٥ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٣ م .

٦ — ——————— :

التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، نشرها محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥١ م .

٧ — ابن طولون : شمس الدين محمد بن طولون ت ٩٥٣ هـ

الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام ، جزء فى مجلد ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م .

٨ — ابن عربشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد

كتاب عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، الطبعة الأولى ، مطبعة وادى النيل بالقاهرة ، ١٢٨٥ هـ .

٩ — ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ٨ أجزاء فى أربع مجلدات طبعة بيروت ، المكتب التجارى للطبع والنشر والتوزيع .

١٠ — ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ

تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ٢ ، تحقيق د. قسطنطين زريق ، د. نجلاء عز الدين . بيروت ١٩٣٨ م .

١١ — ابن قاضى شهبة : تقى الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١ هـ

تاريخ ابن قاضى شهبة : المطبوع جـ ٣ تحقيق عدنان درويش — دمشق ١٩٧٧ م ، المخطوط : أربعة مجلدات برقم ٢٤٠٢ تاريخ تيمور — دار الكتب بالقاهرة .

١٢ — البدليسى : شرف خان . بعد سنة ١٠٠٥ هـ .

شرفنامة جـ ٢ ، تعريب محمد على عونى ومراجعة يحيى الخشاب ، طبع عيسى البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة ١٩٦٢ م .

١٣ — الخطيب الجوهرى : على بن داود الصيرفى • ت ٩٠٠ هـ

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان • ثلاثة أجزاء • تحقيق د• حسن حبشى • مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ م •

١٤ — خواندمير : غياث الدين ت ٩٤٢ هـ

دستور الوزراء ، ترجمة وتعليق د• حربى أمين سليمان ، (ضمن كتاب : المؤرخ الايرانى الكبير غياث الدين كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء) الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م •

١٥ — السخاوى : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع• ١٢ جزء منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٦ م •

١٦ — العينى : بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٢٠٣ ح مجلد ٢٦ ، ٢٧ •

١٧ — المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك • جـ ٣ فى ثلاثة أقسام تحقيق د• سعيد عبد الفتاح عاشور • دار الكتب ١٩٧٠ — ١٩٧١ م القاهرة •

(ب) المراجع العربية الحديثة والمترجمة

١ — بارتولد :

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، تعريب د• أحمد السعيد سليمان مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ م •

٢ — حكيم أمين عبد السيد :

قيام دولة المماليك الثانية • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٧ م •

٣ — د• سعيد عبد الفتاح عاشور :

العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الأولى — دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٥ م

٤ — فشيل :

لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ؛ ترجمة محمد توفيق — منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت •

٥ — لى سترينج :

بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد مطبعة الرابطة — بغداد ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م •

٦ — هارولد لامب :

تيمورلنك — ترجمة عمر أبو النصر — بيروت ١٩٣٤ م •

(جـ) المراجع الأجنبية

1. **Alessandro Bousani,**

The Persians from the Earliest days to the twentieth century, translated from the Italian By : J.B Donne, London 1971.

2. **Aubin, J.,**

Tamerlan à Bagdad, in «Arabica IX 1962.

3. Barthold,

Four studies on the history of Central Asia Leiden 1958.

4. Browne,

A literary history of Persia, Vol. 111, The tartar dominion, 1265-1502, Cambridge University Press 1951.

5. Cambridge History of Iran, Vol. 5, the Seljug and Mongol Periods edited by J.A. Boyle The University Press, 1968.

6. Champdor, A.,

Tamerlan, Paris 1942.

7. Clavijo, Gonzales,

Embassy to Tamerlane 1403—1406, translated from the spanish by : Guy Lestrange, London 1928.

8. De Mignanelli,

Vita Tamerlani, Translated into English with an Introduction and a Commentary by : Walter J. fischel, in «Oriens, vol. 9. 1956».

9. ————

Ascensus Barcoch, Rendered into English with an Introduction and a commentary by : Walter J. fischel, in «Arabica Tome VI, 1959.

10. Desmaisons, P.

Histoire des Mongols et des Tatares Par Aboul Ghazi Behadour Khan, Amsterdam 1970.

11. Grousset, R.,

L'Empire des steppes, Paris 1948.

12. ————

Histoire de l'Asie, Part 111, Le Monde Mongol, Paris, 1922.

13. Hilda, H.,

Tamburlaine, The Conqueror, London 1962.

14. Howorth

History of the Mongols, Part 111, The Mongols of Persia, London 1888.

15. Lane Pool, S.,

A history of Egypt in the Middle ages, London 1936.

16. Lucien Bouvat,

L'Empire Mongole, Paris 1927.

17. Phillips, E.,

The Mongols, Londno 1969.

18. Piloti, E.,

L'Egypte au Commencement du Quin Zieme Siècle, Le Caire 1950.

19. Prawdin, M.

The Mongol empire, its rise and Legacy London 1907.

20. Schartzberg, J.E.

A Historical Atlas of South Asia.

21. Spuler, B.

Les Mongols dans l'histoire, Paris 1961.

22. Sykes, P.,

A history of Persia Vol. I, II, London, 1969

23. Thomas Wright,

Early travels in Palestine, the travels of B. de la Brocquiere.

24. Wiet, G.,

Histoire de la Nation Egyptienne, Tome IV, l'Egypte Arabe.

القسم الثاني

ترجمة مقال دى ميجنانللى

عن

حياة تيمورلنك

VITA TAMERLANI

مقدمة

برتراندو دى ميجنانللى : B. de Mignanelli

تاجر ايطالى من سينا Siena ، ولد حوالى سنة ١٣٧٠ م فى أسرة من طبقة النبلاء ، وغادر ايطاليا فى شبابه ، وتجول كثيرا فى بلاد الشرق الأدنى حتى استقر به المقام فى دمشق حيث أصبح من رجال الأعمال والأثرياء فيها ، وكما قال هو عن نفسه : « وجدت هناك الثروة الوفيرة والشرف العظيم ، لكن ذلك كان يقابله الكثير من الجهد والمخاطر الجمة » . وتعلم دى ميجنانللى خلال اقامته فى دمشق اللغة العربية على نحو طيب ، فتمكن من العمل بالترجمة التحريرية والشفوية للظاهر برقوق عند وصول يعقوب دى كروز Jacob de Croze سفيرا لدوق ميلان جيوفانى جاليزو Giovanni Galeazzo . وكان السفير قد حمل رسالة من الدوق يطلب بمقتضاها الاذن من السلطان برقوق لاصلاح الباسيليكا فى بيت لحم بفلسطين ، كما يطلب حماية الآباء فى جبل صهيون . وقد ترجم دى ميجنانللى خطابات الدوق الى اللغة العربية ، ورد السلطان عليها الى اللغة اللاتينية . ويبدو أن دى ميجنانللى كان ملما أيضا باللغة العبرية[1] .

وكان دى ميجنانللى يقضى شتاء عام ١٤٠٠ م — ١٤٠١ م فى القدس عندما سمع عن حملة تيمورلنك على بلاد الشام وتدميره مدينة دمشق . وقد لحق دى ميجنانللى بجيش الناصر فرج الهارب من ميدان المعركة الى مصر ، ثم عاد دى ميجنانللى مرة أخرى الى دمشق عن طريق

---

(1) De Mignanelli, Vita Tamerlani, p. 209, 228 ; Walter fischel, Introduction to Vita Tamerlani, p 206-207, in « Oriens » Vol. 9, 1956.

قبرس فى خريف عام ١٤٠٢ م ، فشاهد التخريب الذى قام به تيمورلنك فى المدينة قبل مغادرته لها . وبعد رحيل دى ميجنـانللى عن الأراضى المملوكية وعودته الى مسقط رأسه فى سينا قضى بعض الوقت فى مدينة قنسطانز بألمانيا ، وفى عام ١٤١٦ م كتب دى ميجنانللى بناء على طلب أصدقائه مقالتين : احداهما بعنوان : « حياة تامرلان » Vita Tamerlani أو « خراب دمشق » Ruina Damasci ، والأخرى بعنوان « صعود برقوق » Ascensus Barcoch ، وهى ترجمة مفصلة لسيرة السلطان برقوق(٢) .

ونظرا لأن دى ميجنانللى كان معاصرا للفترة التاريخية التى كتب عنها ، كما عمل مترجما للظاهر برقوق ، وسمع بالتفصيل عن هجـوم تيمور لنك على بلاد الشام فى عهد الناصر فرج بن برقوق ، بل وشاهد بنفسه آثار تدمير دمشق ، فان لكتاباته أهمية بالغة ، وتعتبر روايته عن تلك الأحداث رواية شاهد عيان ، وتمدنا المقالتان بمعلومات مفيدة وقيمة

---

(2) De Mignanelli, Vita..., P. 209 ;
Ascensus Barcoch, p. 61-62, in « Arabica » Vol. 6(1959.)

ومن الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن تيورلنك السفير الاسبانى جونزيل دى كلافجو Gonzales de Clavijo الذى أرسله هنرى الثالث ملك قشتاله وليون الى بلاط تيمورلنك فى سمرقند . غير أن ما كتبه كلافجو عن حصـار دمشق وتدميرها لا يتعدى اشارات قليلة لأنه لم يزر سوريا مطلقا . كذلك كتب ايمانويل بيلوتى الذى امتدت انشطته التجارية الى كل المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط ، الا أن ما دونه بيلوتى عن دمشق لا يتعدى فقرة بالغة القصر . كذلك كتب القس الدومنيكانى جان Jean وكان اسقفا لمدينة السلطانية وعمل سفيرا لتيمورلنك الى بلاط شارل الثانى ملك فرنسا عام ١٤٠٣ م ، كما كتب أيضـا الرحالة والمغامر البافارى شـلتبرجر J. Schiltberger الذى عمل تحت امرة السلطان العثمانى بايزيد ثم اسره تيمورلنك وظل مرافقا له من عام ١٤٠٢ م الى ١٤٠٥ م . وقد أعطى شلتبرجر اشارات عابرة عن الأحداث التى جرت فى دمشق . انظر :

Gonzalez de clavijo, Embassy to Tamerlane, 1403-1406 ;
E. ,Piloti, l'Egypte au Commencement du quinzieme siecle p. 119-121; W. fischel, Introduction to vita Tamerlani, p. 204-205.

عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر وسوريا فى تلك الفترة[٣] .

وترجم هاتين المقالتين عن أصلهما اللاتينى الى اللغـــة الانجليزية ووضع بعض التعليقات عليهما الاستاذ والتر فشل Walter J. Fischel استاذ اللغات والآداب السامية ورئيس قسم لغات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا ، وهو متخصص فى الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى .وقد نشرت ترجمة Vita Tamerlani فى مجلة « Oriens » المجلد التاسع لعام ١٩٥٦ م فى حين نشرت ترجمة Ascensus Barcoch فى مجلة Arabica المجلد السادس لعام ١٩٥٩ م[٤] .

والترجمة التى نقدمها هنا باللغة العربية هى عن ترجمة الاســـتاذ فشل . ولما كانت التعليقات التى وضعت فى الترجمة الانجليزية قـــد اعتمدت على مصادر كان معظمها آنذاك لا يزال مخطوطا أو مطبوعا طبعات مضى عليها زمن طويل ، ثم تغير الموقف الآن فنشرت معظم المخطوطات كما أعيد طبع العديد من المصادر طبعات حديثة ، فقد رأيت اتماما للفائدة أن أثبت مصادر الاستاذ فشل التى دونها فى تعليقاته ، ثم أضفت بعدها المصادر التى نشرت أو أعيد طبعها حديثا مع وضع علامة (*) التمييز بينها وبين مصادر الاستاذ فشل ، هذا بالاضافة الى الزيادات التى رأيت اضافتها الى تعليقات الاستاذ فشل لشرحها وتوضيحها ، وقد أشرت اليها أيضا بنفس العلامة .

---

(٣) للمزيد من التفاصيل عن حياة دى مبجنانللى انظر :

W. fischel, Introduction to vita Tamerlani, p. 206. Note, 2.

(٤) للمزيد من التفاصيل عن الأصل اللاتينى لهاتين المقالتين أنظر :

W. Fischel, Introduction to vita..., p. 207, Note, 3, 4.

وأرجو أن أكون قد وفقت الى تقديم ذلك المصدر اللاتينى الهام الى قراء العربية لأهميته واشتماله على معلومات وافية وصحيحة عن تاريخ مصر وبلاد الشام فى مطلع القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر م لا غنى لباحث التاريخ عنها .

والله الموفق ..

د. أحمد عبد الكريم سليمان

حياة تامرلان : Vita Tamerlani

كتبها دى ميجنانللى : De Mignanelli

ص (٢٠٨) ما نورده هنا يدور حول أعمال المدعو تيمورلنك، وهو من أكثر الناس شرا — فى أقاليم سوريا وتركيا ، وما أحدثه من خراب مروع لمدينة دمشق الشهيرة ص(٢٠٩) الواقعة فى اقليم سوريا ، وهى تعتبر فى القسم الثالث من قارة آسيا .

أنا بلتراموس Beltramus سابقا ليوناردى دى ميجنانللى Leonardi de Mignanelli ، من سينا Siena ، بدأت فى سنة ١٤١٦ م اسجل — بناء على طلب الأصدقاء من أعمال تيمورلنك الشريرة فى سوريا فى أثناء اقامتى بمدينة كونستانس Constance الألمانية وقت انعقاد المجلس العام ، حيث كنت أعيش فى ذلك الجزء من العالم فى تلك الفترة .

فى شهر أكتوبر سنة ١٤٠٠ م جاء رجل قوى وشرير ، وهو سيد كبير يدعى تومورلنغ Thomorlengh المعروف تومور بيه Tomor Bey ، والمعروف أيضا تومورا ساش[1] Tomor a Sach ، جاء من موطنه فى

---

(١) يشرح دى ميجنانللى اسم تيمور فى صفحة تالية من مؤلفه حياة تامزلان على النحو التالى : « ترجم اسم هذا الشيطان الى عديد من اللغات . فاسمه الحقيقى هو تومور Thomor وهو يعنى بلغة التتار « الحديد » . ولما كان تيمورلنك اعرجا ، فقد اضيف الى اسمه كلمة Asach وهى تعنى أعرج . وهناك آخرون اضافوا الى اسمه بدافع من الاحترام كلمة بيه « بك » Bey ، وبالتالى اصبح اسمه Tomor Bey اى السيد تيمور . أما الفرس فقد اضافوا كلمة lench . ومعناها الأعرج ، ومن ثم سمى تيمورلنك اى تيمور الأعرج فى لغتهم ».

ذلك الجزء من العالم المسمى : Semi-Aguilonares أى الاقليم الواقع بين الشمال والشرق فيما وراء بلاد التتار ، وزحف على أراضى سلطان مصر وسوريا التى تقع تقريبا جنوب أراضيه التى أشرنا اليها من قبل ، فاستولى أولا على قلعة تقع بالقرب من نهر الفرات تسمى قلعة الروم التى تعنى « حصن الرومان »[٢] ، وقد كانت خاضعة للسلطان .

وقد استخدم دى ميجنانللى فى قصة اللاتينى بصفة دائمة لفظ تومور Thomor أو تومورلنك Thomor Lench بدلا من الاستعمال الغربى الشائع تيمور Timur أو تامرلان Tamerlane . أما لقب تامرلان الرسمى فهو أمير جورجان Emir Gurgan وهو الاسم الذى كان مستخدما على عملاته ، أو صاحب قيران Sahib Quiran « سيد الكواكب السعيدة » كما كان المؤرخون الفرس يسمونه « جورجان أو كوركان » بمعنى صهر الملوك . وهذه التسمية لم تكن معروفة لدى دى ميجنانللى . أما المؤرخون العرب فاعتادوا ان يشيروا الى تيمور بأنه الأمير او السلطان او الملك .

(*) انبتنا فى الترجمة العربية بعد ذلك لفظ « تيمور » المتعارف عليه بدلا من تومور الوارد فى النص اللاتينى والترجمة الانجليزية دون الاشارة الى ذلك التعديل فى كل مرة . وعن تيمورلنك انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — طبعة دار الكتب — جـ ١٢ ص ٢٥٤—٢٧٠ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . المجلد الرابع حوادث سنة ٨٠٧ هـ ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) حصن الرومان هذا كان يسمى ايضا قلعة المسلمين . وطبقا للنجوم جـ ٦ ص ٨١ فان تيمور لم يقم بغزوها . وعن موقع هذا المكان وغيره من الامكنة المذكورة هنا انظر :

Le Strange, The Lands of Eastern Calphate, Cambridge 1905 ; Gaudefroy — De Mombynes, La Syrie à l'epoque des Mamelouks, Paris 1923 ; W. Popper, Egypt and Syria under the Circassian Sultans Systematic Notes to Ibn Ṭaghri Birdi), U.C. Publ. in Semitic philology vol. xv, Berkeley 1955.

(*) تقع هذه القلعة على الضفة اليمنى للفرات ، وكانت بموقعها الاستراتيجى بمثابة الباب الرئيسى لغزو سوريا ، وقد استولى عليها السلطان
=

ثم انحدر الى مدينة مالماثيا(٣) Malmathia التى تقع بين أرمينيا وتركيا وسوريا . وزحف بجيش لا يحصى عدده وأجبر المدينة على قبول شروطه . ثم ذهب الى أبعد من ذلك ؛ فعبر نهر الفرات ؛ ثم تقدم نحو سوريا ، وبالقرب من مدينة الابيا Alapia (٤) سحب جنوده وأمام معسكره . وهى مدينة كثيفة السكان وجميلة وكبيرة وتقع على بعد أربعين ميلاً من أنطاكية طبقا (ص ٢١٠) لنظام الميل فى القياس عندنا .

وكان دومور دى الجيشى Do Mordey el Chasichi (*) نائب السلطان

الاشرف خليل سنة ٦٩١ هـ/١٢٩٢ م وكانت وقتها تضم حامية مغولية وارمينية، وبعد استيلاء الأشرف خليل عليها وضع فيها حامية مملوكية واطلق عليها اسم قلعة المسلمين . انظر :

أبو الفداء : المختصر فى اخبار البشر جـ ٤ ص ٢٦—٢٧ ؛ المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٣ ص ٧٨٨ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٧ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٣٣٨ .

وكان تيمورلنك قد نزل على هذه القلعة ولم يقدر على الاستيلاء عليها ، فتركها ونزل عينتاب . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٦٥ .

(٣) المقصود بهذه المدينة ملطية التى استولى عليها تيمورلنك فى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٤٠٠ م بعد فتحه سيواس .

(٤) المقصود بذلك مدينة حلب .

(٥) هو دمرداش او تمرتاش المحمدى المتوفى عام ١٤١٥ م . وقد عمل نائبا فى حلب ثم بعد ذلك فى دمشق ، وكان من بين الشخصيات الهامة فى أمراء المماليك ، وقد وصف المؤرخون حياته الحافلة بالتفصيل فى كل المصادر الاسلامية . انظر :

Les Biographies du Manhal Safi, ed. Wiet, Le caire 1932, p. 146

ويشير دى ميجنانللى فى Ascensus Barcoch ورقة ٦٥ بأن اسمه دوموردكس الجيشى Domordex el chasichi وهى نسبة خاطئة لأنها لم ترد مطلقا فى المصادر الاسلامية .

(*) اثبتنا بعد ذلك فى الترجمة العربية اسم ذلك الأمير على الرسم الصحيح له دون الاشارة الى ذلك فى الحواشى تجنبا للتكرار . وعن ذلك الأمير انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ١٣٨—١٣٩ تحقيق د. جمال محمد محرز ، فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩١ هـ (١٩٧٢) ، الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٦٠ .

يقطن فى حلب ، وهو شاب صغير قوى البنية ذو شجاعة عالية . وكان فى مستهل حياته مسيحيا من اقليم سالونيك فى بلاد اليونان والتى نسميها نحن سالونيكا ، وقد أصبحت على أى حال اسـلامية . وعندما لاحظ أعمال تيمور رغب فى مقاومة ذلك العدو(٦) . وطلب المساعدة من مواطنيه الآخرين ومن نواب السلطنة(٧) ، خاصة من نواب دمشق وطرابلس وحماه وحمص والمدن القريبة الأخرى . وكانت دعوته من القوة بحيث سرعان ما اجتمع لديه ما بين ثلاثين الى خمس وثلاثين ألف رجل . واشـتبك هذا العدد على صغره وبعناد وشجاعة فى معركة طاحنة مع جيش تيمور معتقدين أن جموع تيمور لن تجرؤ على مقاومتهم . وبخطة ذكية تظاهرت حشود تيمور بالفرار ، وفتحت ثغرة لجيش السلطان وسمحت له بالتوغل داخل خطوطهم ثم أطبقوا عليه فى نفس الوقت ، ثم حملوا على قوات السلطان التى أصبحت محاصرة ، وهجموا عليهم بعنف شديد حتى أن قوات السلطان تقهقرت بعد فترة قصيرة ، وبعد تدمير العدد الأكبر منهم تم أسرهم بسهولة كالنساء . وبعد أسر هؤلاء استسلمت مدينة حلب لتيمور

---

(٦) بعد أن غزا تامرلان سيواس فى ٧ سبتمبر ١٤٠٠ م ادرك الامراء المماليك فى حلب خطورة الأمر ، وأرسلوا التحذير تلو التحذير الى السلطان فى القاهره . ولم تؤخذ هذه الاستغاثات بجدية فى القاهرة ، ولم يقم احد بعمل اى استعداد للحرب ضد تامرلان « بل على العكس كما يقول ابن تغرى بردى بمرارة « بل كان جل قصد كل أحد منهم ما بوصله الى سلطنة مصـر وابعاد غيره عنها » . انظـر : النجوم جـ ٦ ص ٤٦ .

(*) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم ، طبعة دار الكتب ، جـ ١٢ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٧) طبقا لنظام الادارى لدولة المماليك كان يتم تعيين نواب للسـلطان فى معظم المدن الاقليمية مثل دمشق وحلب وطرابلس وحماه وحمص ... الخ ونواب القلعة فى المدن الاقليمية كانوا موظفين مختلفين عن هؤلاء النواب ، فكان نائب القلعة مستقلا عن نائب المدينة وعن الموظفين الآخرين فى نفـس المدينة ، وكان تابعا للسلطان فقط .

دون تأخير ، وكذلك الاقليم المجاور لها[٨] . وفى الحقيقة فان تمرتاش الذى أسر مثل الآخرين لم يكبل بالأغلال معهم بل كرمه تيمور كأحد نبلائه، وقام تمرتاش بامداد قوات تيمور بالمؤن فاحتفظ بحكم تلك الأقاليم التى عين عليها حاكما من قبل السلطان ، وبسبب ذلك (ص ٢١١) التكريم الذى منحه له تيمور فقد أصبح مشكوكا فى أمره لدى السلطان ولدى شعبه واعتبر خائنا[٩] .

وعندما كان تيمور يحكم مدينة حلب فى سلام أمر فى أحد الأيام

---

(٨) بدأ جيش تيمور حصار مدينة حلب فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٤٠٠ م . وتم استسلامها فى الثانى من نوفمبر سنة ١٤٠٠ م . وتوجد تفاصيل كثيرة عن خطط تيمور العسكرية وهجومه على حلب والفظائع التى ارتكبها فى المصادر الاسلامية .

(*) انظر : ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة مجلد ٤ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٢—١٧٤ ، ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر (تحقيق د. حسن حبشى) جـ ٢ ص ١٣٤—١٣٥ .

(٩) أكدت المصادر العربية أيضا رقة المعاملة التى تلقاها تمرتاش من تامرلان . انظر النجوم جـ ٦ ص ٥٢ حيث يقول بأن تامرلان : « خلع عليه ودفع اليه أمانا وخلعا للنواب ، وأرسل معه عدة وافرة من أصحابه » وقد عرف فيما بعد ان الرسول الذى ارسله تامرلان الى تمرتاش حاول أن يبتزه أمام زملائه بقوله : « ان الأمير (يعنى تيمور) لم يأت البلاد الا بمكاتبتك اليه وانت تستدعيه أن ينزل على حلب ، واعلمته ان البلاد ليس بها احد يدفع عنها » وقد استشاط تمرتاش غضبا عند سماعه ذلك . ولا شك ان ملاحظات السفير كانت من تصميم وخداع تيمور ومكره بهدف بذر بذور الشقاق بين صفوف الجيش المملوكى ، وكان الأمراء على علم بذلك ومن ثم فشلت الخطة ، ومع ذلك فلابد من وجود بعض الشك فى ولاء تمرتاش . ومهما كان الأمر فقد فر تمرتاش من تامرلان وذهب الى دمشق حيث عين نائبا للسلطان . انظر النجوم جـ ٦ ص ٤٩—٥٧ .

(*) انظر النجوم جـ ١٢ ص ٢٢١ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور (مطبعة وادى النيل فى القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ) ص ٩٢ .

باحضار كل قادة السلطان ونوابه الذين كان قد أسرهم وسألهم[١٠] عن الوظائف التى تولوها وعن طريقة حكمهم نوابا للسلطان ، وعندما وجد بغيته[١١] فانه هز رأسه وقال : « انه من الواضح تماما انكم كسالى وتعملون تحت حكم سلطان غبى وحقير ، عينكم فى مثل تلك الوظائف الكبيرة » . ثم ابتدأ بنائب دمشق[١٢] ، ثم سألهم جميعا عن نسبهم . ونظر بامعان عن الفضائل التى توقع أن تكون قوية فى هؤلاء الرجال .

---

(١٠) من المعروف أن تامرلان كان يستمتع بمناقشاته مع القضاة والعلماء فى كل مكان كما جاء فى كل المصادر . وكان من عادته أن يسأل علماء سوريا ، ثم يستغل اجابتهم كذريعة لتعذيب وقتل العديد منهم : أنظر : ابن عربشاه جـ ١ ص ٦٢٤—٦٤٤ ، جـ ٢ ص ٨٠ —٩٠ ، النجوم جـ ٦ ص ٥٣—٥٤ ، ٦٦—٧٠ ، السخاوى : جـ ٣ ص ٤٧ .

(*) وانظر النجوم طبعة دار الكتب جـ ١٢ ص ٢٢٦—٢٢٧ .

(١١) لابد أن تامرلان كان يلجأ الى مترجم لأنه لم يكن يفهم العربية كما لم يكن يفهم التركية والفارسية الا قليلا . ومن المحتمل جدا أن يكون ذلك المترجم هو العالم المشهور عبد الجبار بن النعمان المتوفى عام ١٤٠٣ م ، وهو العالم الحجة فى الشريعة الاسلامية ، والذى جاء الى سوريا صحبة تامرلان باعتباره من المدربين فى المناقشة والجدل ، وهو الذى أدار معظم المناقشات باسم تامرلان مع علماء حلب ثم فى دمشق . وفى المنهل « ورقة ١٤٨ ب » يسمى مترجم تامرلان . انظر ايضا : السخاوى جـ ٤ رقم ١٠٣ ص ٥—١٧ ، ابن عربشاه جـ ١ ص ٦٣٢ .

(*) انظر : الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٨٩ حيث أشار الى وجود اربعة فقهاء مع تيمورلنك منهم عبد الجبار ، فشل : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ص ١٢١ (التعليق رقم ٥٨) .

(١٢) كان ذلك النائب هو سيف الدين سودون الذى جاء مع الامدادات التى انضمت الى حامية حلب وأسره فيما بعد تامرلان ، وكان تامرلان يعتبره مسئولا عن قتل سفيره ، وقد قتل فيما بعد لهذا السبب . انظر :
Manhal, ed. wiet, p. 460 No. 1119.

(*) وقد ذكر ابن تغرى بردى فى النجوم جـ ١٢ ص ٢٢٤ أن تيمور أحضر كبار الأمراء الأسرى بين يديه وهم مكبلون فى الحديد ورئيسهم سودون نائب الشام « ثم أخذ يقرعهم ويوبخهم ويلوم سودون نائب الشام فى قتله لرسوله، ثم دفع كل واحد منهم الى من يحتفظ به » .

ولما لم يجد شيئا جديرا بالمديح فانه قال : « حقيقة انه لا قيمة لكم الا أن تكونوا رعاة للخنازير والحيوانات طالما أنكم تفتقرون الى كل فضيلة ونبل » • وليس فى ذلك ما يثير الدهشة ، لأنه قد تم بيعهم كعبيد ورعاة للحيوانات • ثم دعا تيمور رجاله للمثول بين يديه ، وكان عددهم كبيرا • ثم أشار الى رجال السلطان وقال : « هل أنتم على شاكلة هؤلاء الرجال ؟ ؛ لقد اعتبروا جديرين بأن يحكموا ، ومنذ أن كانوا صغارا تعلموا الكثير • ومن الواضح أنهم لم يرعوا الحيوانات كما فعلتم أنتم » •

ص ٢١٢ : أما رجال تيمور فقد كانوا أكثر وجاهة وشرفا بحكم مولدهم ، وكانوا رجالا بارزين وأولى فضل وعركتهم السنون • وبعد توجيه مثل تلك الاهانة لرجال السلطان فان تيمور أصدر أوامره بحصاد القمح وأن يحمله هؤلاء الرجال على ظهورهم ، وكذلك سائر أنواع الحبوب والشعير والتبن الذى تأكله الخيول ، وكذلك الأخشاب والمؤن الأخرى المشابهة لها لسد احتياجات الجيش • وكان يأمرهم قائلا : « افعلوا ذلك أيها الفلاحون لأنكم غير جديرين بأى عمل آخر » • ولم يفعل ذلك معهم لحاجته الحقيقية اليهم ، فقد كان لديه عدد كبير من الرجال • بل تحقيرا واذلالا لهم •

وبعد أن أتم ذلك فانه احتفظ بهؤلاء الرجال أسرى ، وللسخرية فانه أرسل سفراءه فى مهمة سلام زائفة الى مدينة القاهرة مقر السلاطين الى السلطان الطفل فرج(١٣) ابن السلطان برقوق Barcoch (١٤)

---

(١٣) يشير الى السلطان المملوكى فى ذلك الوقت وهو السلطان الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق •وقد ولد فرج عام ١٣٨٩ م واعتلى للعرش وهو فى سن العاشرة فى العشرين من يونية عام ١٣٩٩ م ، ثم خلع فى سنة ١٤٠٥ م ولكنه بعد فترة سبعين يوما استعاد سلطنته واستمر فى الحكم من يونية ١٤٠٥ م حتى وفاته فى الرابعة والعشرين من عمره عام ١٤١٢ م• انظر : النجوم ج ٦ ص ٢٧٠ •

(*) خلع الناصر فرج من الحكم فى ٢٥ من المحرم عام ٨١٥ هـ وقتل فى ١٦ صفر سنة ٨١٥ هـ • أنظر : النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ١٣ ص ١٤٦ — ١٤٧ •

ولم يكن هدفه تحقيق الســـلام كما برهنت الأحـــداث ، بل كان هدفه التجسس على أحوال السلطان وبلاده وبذر بذور الشقاق[١٥] • ومدينة الابيا Alapia التى تسمى حلب فى العربية تقع على بعد سبعمائة ميل ايطالى من مدينة القاهرة • وكان السلطان فى الرابعة عشر من عمره ويحكم عن طريق مجلس مكون من رجال حديثى السن متغطرسين • وخلال شهرى أكتوبر ونوفمبر تفاوض السفراء من أجل السلام • وقرر السفراء أن تيمور راغبا فى معاملة السلطان كابن له شريطة أن تحمل العملات الذهبية والفضية التى تسك فى أراضى السلطان فى المستقبل اسم تيمور ، وزيادة على ذلك فقد طلب مبلغا من المال يعطى لمحاربيه كان من الضخامة بحيث لا تستطيع كل ايطاليا ذاتها أن تفى به ، وأن تقام الصلوات فى المساجد باسمه هو لا باسم السلطان • وكان الهدف من كل هذه الطلبات هو حكم الاقليم والسيطرة عليه[١٦] • ولم يكن السلطان ميالا مطلقا لتلبية أى من هذه المطالب اذ أنه كان لا يزال حدثا ، لكنه فعـــل ذلك بناء على طلـــب مستشاريه •

= (١٤) كان دى ميجنانللى يكتب دائما اسم السلطان برقوق على هذا النحو • انظر سيرة ذلك السلطان التى كتبها دى ميجنانللى بعنوان : Ascensus Barcoch ، وتوجد ترجمة انجليزية لها وتعليقات معدة للنشر .

(*) نشرت ترجمة Ascensus Barcoch من اللاتينية الى الانجليزية بمعرفة والتر فشل فى مجلة Arabica, Vol. 6, 1959.

(١٥) تؤيد المصادر العربية ارســال السفراء الى السلطان فـرج فى القـــاهرة •

(*) وفقا لما جاء فى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتاب السلوك للمقريزى فان طلب تيمور الصلح من السلطان الناصر فرج كان بعد وصـــول الناصر الى دمشق ولبس قبل ذلك . انظـــر :

ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٥ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ١٠٤٢ •

(١٦) الشرط الخاص بسك العملة باسم تيمور واقامة خطبة الجمعة باسمه لم يرد فى المصادر العربية ، انما جاء فقط فى المصادر الفارسية • انظر :

Sharaf ad-Dın, 111, pp. 318-320 ; Pilotı de Crete, L'Egypte, pp. 119-120

وهكذا فانه عندما انتهى حديثهم وتجسسهم أيضا عادوا الى حلب (ص ٢١٣)، وخلال الوقت الذى كان السفراء يتباطؤون فيه فى العودة فان تيمور أعاد تنظيم المدينة وسائر الاقليم تماما، وأمسك عن أن يصب عليهم من الآن فصاعدا مرارته الدفينة التى كان يكنها لهم بعد عودته؛ كما أحجم عن الكشف عن ميوله الشريرة بصفة عامة، لكنه أمر بالهجوم عن الحصن القوى أو قلعة حلب التى تقع على مرتفع منيع وأعلى من قلعة دمشق . وكان ذلك الحصن يفوق ما سواه من الحصون روعة فى تلك المنطقة . وقد دافع عنه من كانوا بداخله دفاعا باسلا . وفى نهاية الأمر وبعد أن أمر تيمور قوات السلطان باعداد الحفر التى عينها لهم كى يقتلهم فيها رميا بالسهام، فقد استسلمت القلعة بناء على وساطة تمرتاش المذكور آنفا، فوضعت نهاية للحرب الدائرة بصفة مؤقتة(١٧) .

وعندما أراد السكان العبريون فى نهاية شهر نوفمبر الاحتفال بأحد الأعياد(١٨) كما هو المعتاد بينهم، وخشية أن يتم نهبهم من قبل جماعات تيمور فانهم احتشدوا فى المعبد يؤدون الصلاة فى خشوع وخوف . ولكى يوفروا لأنفسهم مزيدا من الحماية فانهم حملوا معهم الى داخل المعبد كل ما يمكن حمله من أمتعتهم، وما غلى ثمنه، وعلى سبيل المثال : نقودهم وجواهرهم وأشياءهم الثمينة وما شابه ذلك . وفى ذلك الوقت كان فى جيش تيور بعض المحاربين الذين كانوا يعرفون لغة اليهود الى حد كبير، وما أن عرف هؤلاء بما فعله العبريون، وبموافقة تيمور — فيما يعتقد —

---

(١٧) بعد اقتحام قلعة حلب سنة ١٤٠٠ م بدأ تيمور زحفه جنوبا عن طريق بعلبك تجاه دمشق وقد مكث فى حلب حوالى شهر . انظر النجوم ج ٦ ص ٥٠—٥٣ .

(*) انظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٥—٢٢٨، المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٥—١٠٣٨ .

(١٨) من الأمور الغامضة أن نعرف ما هو العيد الذى يقع فى شهر نوفمبر والذى يشير اليه دى ميجنانللى فهل يمكن أن يكون اعيد شانوكا Chanukka او ربما عيد السبت Sabbath ؟

حتى ذهبوا مسلحين تسليحا جيدا ومتنكرين في زى يشبه زى اليهود من أجل زيارة المعبد كما أدعوا ذلك • وقد ذهبوا الى المعبد ورؤوسهم منكسة، ويتمتمون بصلوات عبرية ثم قالوا : « نحن من قومكم وعبريون مثلكم » • واستمع هؤلاء الرجال الحمقى الى حديثهم المعسول عن الكتب المقدسة. والمزامير والتلمود وكل الكتب اليهودية المقدسة ، وصدقوا كل ذلك خاصة عندما سمعوا أنهم يعرفون التلمود لأنه كان كتابا غامضا ولا يفهمه الا قلة فقط ، فهو كتاب فاسد ومزيف ، وهـو تقريبا نسـخة محـرمة من الانجيـل[١٩] •

وقال هؤلاء الرجال « المزيفون » انهم يعبدون اله اليهود العظيم ، وأنهم جاءوا الى المعبد للعبادة ، وبدافع من الحب الأخوى الذى يشـبه فى اخلاصه وفاء الكلاب ، ولحماية هؤلاء العبريين وممتلكاتهم ، وزعموا أنهم جاءوا اليهم بروح من الأخوة الأبدية من أجل المستقبل ، وأظهروا تقديسا للمعبد ، وأضافوا بأن تيمور يرغب فى سلب المدينة ، وأغروهم لاحضار كل ممتلكاتهم الى المعبد لأن ذلك أكثر أمانا ، ووعدوا وعد الذئاب متظاهرين بالحب الزائف لهم ، وأدعوا أنهم سيحمون الجميع • وقد صدق هؤلاء اليهود الحمقى المجردين من العقول كل ما قيل لهم ، وشكروا الله شكرا جزيلا معتقدين أنهم نالوا من التكريم فوق ما اعتادوا • وامتزجت لديهم مشاعر البهجة والكبرياء فراحوا يجدفون فى حق أمراء المسيحيين بأسلوب مبالغ فيه لأنهم لم يكرموا الزعيم اليهودى الكاذب المزيف ، ولم يقدروه حق قدره كما أدعى هو لنفسه • وأخذوا يغدقون الثناء ويرفعون الصلوات المخلصة من أجل تمجيد ذلك الأمير العظيم لأن هؤلاء الرجال الحمقى لم يدركوا ما سيأتى به الغد[٢٠] •

---

(١٩) ان وجود يهود فى جيش تامرلان ، وان هؤلاء اليهود كانوا يعرفون العبرية والانجيل والتلمود هو زعم لا يصدق •

(٢٠) هذه الرواية التى رواها دى ميجنانللى عن اليهود فى حلب ابناء جيش تامرلان لها هى الرواية الوحيدة الأسطورية التى تفتقر الى الحقيقة التاريخية • المزيد من التفاصيل انظر الملحق فى نهاية الترجمة الانجليزية •

وعندما أخليت المنازل وامتلأ المعبد دخل اليهود الزائفون — من رجال تيمور — وكان كل منهم مسلحا بسيف حاد وذبحوا اليهود كلهم كبارا وصغارا ، ولم ينج أحد حتى النساء ، وبعض الفتيات الصغيرات الجميلات اللائى استبقين على قيد الحياة اغتصبن فى المعبد ؛ لكن الأخريات قتلن . وعندما تم تدنيس المعبد بالقذارة والدماء ، أفرغوه من كنوزه وقسموا الأسلاب وهم يضحكون على حماقة العبريين . وكان لدى تيمور رجال ممتازون ومهرة فى اللغة العربية واليونانية والعبرية وفى كل لغة . كما كانوا على نفس القدر من المهارة فى علم الفلك والهندسة والتعاويذ والسحر ، وعلى علم وافر فى كل لون من ألوان المعرفة التى من ذلك القبيل .

وعاد السفراء من القاهرة بعد أن أتموا تجسسهم . وبعد تكرار تأخيرهم ، وقد حملوا معهم رد السلطان الى تيمور . وأخبروه عن الجيش الذى يعده السلطان ضده ، ففعل نفس الشىء وجهز جيشا على أهبة الاستعداد ، وأنتظر فى فرح مجىء السلطان . وكان تيمور يتمنى أن يقع السلطان فى الأسر . ولكى يسهل تيمور على نفسه ذلك العمل تظاهر بأنه يرغب فى الاستيلاء على دمشق . وقد فعل ذلك كى يستدرج السلطان الى الممر الضيق الذى اختاره تيمور بالقرب من دمشق . وقد حدث ذلك فى نهاية الأمر اذ أتى السلطان الى ذلك المكان دون أن تكون معه قوة كبيرة بل بجيش جميل المظهر يصل عدده الى أربعين ألف . فرجال السلطان كانت لديهم خيول جيدة . وخوذات ودروع ، ودروع الصدر (ص ٢١٥) وكل شىء آخر يحتاج اليه الجيش فى المعركة باستثناء دروع مفاصل وسيقان الجند ، فقد كانوا غير معتادين عليها . وجاءته الامدادات من الفتيان الذين التحقوا بالجيش فباع منهم الأقل شجاعة كمماليك كما هى العادة فى بلاد السلطان .

وأتخذ السلطان بعد ذلك طريقه الى دمشق[٢١] ، وأعقبه تيمور بأن فعل نفس الشيء مع قواته ، واتجه الجيشان الى دمشق فى قوة متكافئة . والمسافة بين دمشق والقاهرة هى خمسمائة ميل ايطالى . أما حلب فهى على بعد حوالى مائتى ميل من دمشق ، وتقع حلب فى اتجاه الشمال فى حين تقع القاهرة فى اتجاه الجنوب والى الغرب قليلا . وهكذا اقترب الطرفان من دمشق ، تيمور من الشمال ، والسلطان من الجنوب ، فى حين تقع دمشق فى الوسط . وكان السلطان الطفــل يمكث دائما مــع قواته عند حلول الليل[٢٢] . وهكذا كانوا بالقرب من بعضهم البعض ودمشق تقع بينهم .

ووقعت مناوشات حادة مستمرة من كلا الجانبين ، ودافع رجال السلطان بثبات عن شرفهم ضد رجال تيمور . ومع اقتراب رأس الســنة

---

(٢١) غادر السلطان فرج القاهرة بجيشه النظامى ومعه امراؤه وقضاته فى ١٩ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م . (انظر السلوك ورقة ٢٤ أ والنجوم ج ٦ ص ٥٥) واتجه الى الريدانية وهى المعسكر الأمامى للجيش الزاحف الى معركة ، وتقع على بعد ميل شمال القاهرة . وغادرت طليعة الجيش الريدانية فى ٢٦ نوفمبر ، ثم تبعها السلطان بقواته الرئيسية فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م . وقد وصل فرج الى غزة فى ٨ ديسمبر ثم تحرك الى دمشق فى ١٤ ديسمبر حيث بلغها فى ٢٣ ديسمبر فمكث فى القلعة مع حرسه حتى ذهابه الى معسكره . انظر النجوم ج ٦ ص ٥٨ .

(*) أنظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٢ ، المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٧ — ١٠٤٠ .

(٢٢) كان معسكر فرج عند قبة يلبغا مع أن ابن اياس ج ١ ص ٣٢٣ يقول ان المعسكر كان فى القصر الأبلق خارج أسوار المدينة غربى القلعة .

(*) فى بدائع الزهور لابن اياس ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ — ٦٠٦ ان الناصر فرج دخل دمشق فى السادس من جمادى الأولى ونزل بالميدان الكبير وجلس بالقصر الابلق وصلى الجمعة بدمشق ثم خرج الى مخيمه ظاهر المدينة عنــد قبة يلبغــا .

نشبت معركة حادة غير عادية(٢٣) ، وكان تيمور على بعد حوالى خمسة أميال من دمشق(٢٤) ، فى حين كان جيش السلطان على الجانب الآخر ولكنه أكثر قربا من المدينة . وفى هذا الموقف أظهر رجال السلطان موقفا شجاعا وثقة بالنفس ، ولقد كان ذلك فى الحقيقة موقفا متهورا تجاه العدو ، وكان ذلك سيئا بالنسبة لهم حيث كانوا قلة ضد كثرة كثيرة . وانى لأعتقد أنه لو كان السلطان راغبا فى حشد كل الجيش الذى لديه فى أراضيه لأحرز نصرا مجيدا على العدو . ولكنه أخذ بنصيحة الشباب الأغرار المتغطرسين الذين كانوا يسيطرون عليه . ورفض بازدراء نصيحة كبار السن من مستشاريه .

وفى شهر ينـاير وبعد عيد الغطـاس دارت معـركة (ص ٢١٦) شرسة(٢٥) ، وهى معركة لم يشترك فيها الجيش بكامله ، كما أنها لم تكن

---

(٢٣) تعطينا كل المصادر المعنيه تفاصيل متيرة عن المناوشات والمعارك التى وقعت فى ذلك الوقت . وطبقا للمصادر العربية فان بعض هذه المصادمات وقعت بين طلائع الجيشين فى ٢٥ ديسمبر عندما الحق مائة من الفرسان المصريين الهزيمة بألف من مقدمة جيش تامرلان . وقد ذكر شرف الدين نفسه أن الفرسان المصريين اجود فرسان العالم . انظر :

Sharaf ad-Din, III, p. 313.

(*) عن هزيمة مقدمة جيش تيمور انظر المصادر العربية التالية :
ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٣ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ١٠٤١ــ١٠٤٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٦ .

(٢٤) كان مركز مراقبة تامرلان يسمى قبة سيار ، وكان هذا الموقع وهو على منحدر تل يبعد عن قبة يلبغا بميلين غربا ويسيطر على الرؤية ليس فقط بالنسبة لدمشق بل بالنسبة لمساحة كبيرة من الاقليم حتى جبل هارمون Mt. Harmon . وعلى أى حال فان تامرلان لم يمكث على ذلك التل اكثر من شهر ، كذلك فان السلطان فرج لم يبق طويلا عند قبة يلبغا كما سوف نرى .

(٢٥) ربما يشير دى ميجنانللى هنا الى المعركة التى وقعت فى أول يناير سنة ١٤٠١ م (النجوم جـ ٦ ص ٥٩) فبعد فرار الجناح الأيسر للجيش المصرى نجح الجناح الأيمن فى صد هجوم عنيف تحت قيادة تامرلان شخصيا الذى حاول النفاذ الى داخل المدينة .

(*) عن هذه المعركة انظر المصادر التالية : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٤ــ٢٣٥ ، ابن اياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٦ .

معركة نظامية . وقد انتصر رجال السلطان أولا ، ثم ان بعض الذين اجبروا على الفرار على يد رجال السلطان هربوا الى معسكرهم . وعلى أى حال فان معظم المصادر البارزة تجمع على أن ذلك العمل كان خدعة مدبرة مسبقا ، فما أن وصلوا الى خيام تيمور حتى اجتمع حشد كبير لا يحصى ضد رجال السلطان . وبصوت عال ، وبالصياح والعويل ، ودوى البوقات والآلات الأخرى انقضوا عليهم وحدثت مذبحة كبيرة سقط فيها أعداد لا حصر لها من الجانبين . وأخيرا فان رجال السلطان لم يستطيعوا أن يواجهوا مثل ذلك العدد الغفير وعجزوا عن المقاومة وأرغموا على التقهقر . ومع حاجتهم الى ما يحفز هممهم أكثر من حاجتهم الى الرماح فانهم واصلوا المقاومة أمام دمشق . وأخيرا هربوا الى خيامهم ، ومزقوا شر ممزق وذبح وأسر الكثير منهم[٢٦] .

وفى الليلة التالية ألم بهم حزن عميق ، وراحوا يسترجعون حماقتهم فى اليوم السابق وفشلهم فى مواجهة حشود تيمور ، ولم يستطيعوا كبت بكائهم وعويلهم . وبينما هم على هذه الحالة فى الليلة التالية بعد فرارهم أعاد جيش تيمور تشكيل نفسه من جديد مبتدءا من خيام تيمور شمالا ومتخذا شكل قوس على هيئة نصف دائرة ، وأنتشر فى اتجاه الشرق منحرفا الى الجنوب بالقرب من الجبل المسمى مونستريفيز Monstrivis [٢٧] . ثم أشعلوا نارا ضخمة حولهم من كل ناحية سدت كافة الطرق المؤدية الى القاهرة . وكان هناك عدد كبير من الحرائق من ذلك النوع فى كل مكان بحيث ساد الاعتقاد أن هذه الحرائق قد غطت

---

(٢٦) هذا الوصف يتفق مع ما قاله المؤرخون العرب . وقد وقعت هذه المعركة الكبرى فى الخامس من يناير سنة ١٤٠١ م .

(*) عن الكمين الذى اعده تيمورلنك لقوات المماليك وراء جبل الكسوة انظـر :

الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٨٣. العينى : عقد الجمان — مخطوط — مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٢ .

(٢٧) ليدن وانتحا المقصود بهذا اللفظ .

مساحة مائة وخمسين ميلا . ولما كان معسكر السلطان يقع فى منتصف تلك النيران فقد جن جنونه عند رؤية الطريق الذى سلكه عند قدومه من القاهرة مسدودا والذى قال رجاله انه بوسعهم الانسحاب عن طريقه الى القاهرة[٢٨] . ومع الخطر الذى أحدق برجال السلطان، فقد حاولوا فى فزع وخجل التفكير فى حل، فعقدوا فى الليل مجلسا للتشاور حيث قرروا الهرب سرا[٢٩] ، واتجهوا غربا تجاه (ص ٢١٧) باراتوس Baratus [٣٠]. لأنه لم يكن هناك طريق آخر أكثر أمنا .

---

(٢٨)(*) أشار الخطيب الجوهرى الى موضوع اشعال النيران فقال : « فلما أظلم الليل أوقدوا نيرانا عظيمة ؛ بحيث أوقعوا فى قلوب الناس رعبا عظيما : انظر : الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٨٣ .

(٢٩) وصلت شائعة الى دمشق عن سبب هروب السلطان فرج والأمراء الى القاهرة مفادها أن هناك مؤامرة ضد السلطان دبرها فى القاهرة الشيخ سيف الدين لاجين الجركسى . وقد حدث فرار السلطان فرج عائدا الى القاهرة مع الأمير يشبك فى ليلة السابع من يناير عام ١٤٠١ ، ويعنى ذلك أن السلطان فرج مكث فى دمشق حوالى اسبوعين فقط وهى الفترة ما بين ٢٣ ديسمبر ١٤٠٠م الى ٧ يناير ١٤٠١ م . أما دى ميجناللى فقد انضم الى الفريق الهارب فى القدس وعاد معه الى القاهرة .

(*) كان السلطان فرج قد وصل الى دمشق فى السادس من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ وغادرها فى الحادى والعشرين من نفس الشهر .

(٣٠) يشير ذلك اللفظ الى بيروت . ولكن السلطان فرج وفريقه الهارب كان من المستحيل عليهم ان يتخذوا مثل ذلك الطريق شمالا . ولم تتفق المصادر العربية حول الطريق الصحيح للهرب ، ومن الممكن الافتراض أن الطريق الذى اتخذه الناصر فرج كان بين عكا وصفد باعتباره أقصر طريق يصل به الى ساحل غزة فى طريق العودة الى القاهرة .

(*) انظر المصادر العربية التالية حول هذا الموضوع :

ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٦—٢٣٧ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٥ ، الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٨٤—٨٥ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٩ .

وكان عدد هؤلاء بما فيهم السلطان الطفل حوالى ثلاثة آلاف ، وقد نهبهم الفلاحون[٣١] بطريقة مخزية • وأخيرا فان الذين اخترقوا — ولم يتمكن المجيع — منطقة سهل نوح المسماه Elmaieg [٣٢] فى أثناء رحلتهم بين دمشق وبيروت ، استداروا الى اليسار فى اتجاه القاهرة ، وقد فضلوا أن تدمر تدمشق والاقليم بأكمله على أن يقعوا أسرى فى يد تيمور وينالهم الخزى على يديه • وهكذا وبينما السلطان يتراجع وقد وقع رجاله أسرى ونهبت خيامه بما فيها من ثروات نفيسة ، فان تيمور استدعى كل قواد جيشه وخطب فيهم قائلا : « لقد استولينا على دمشق وأحرزنا النصر على السلطان كما تنبأت ، وكما تنبأ لى رجالى الحكماء • والآن يجب أن نتحرك بحذر حتى لا تكون مهارتنا سببا فى هزيمتنا ونفسد مشروعاتنا ،لذلك التزموا بخططى وكفوا تماما عن احداث أى تغييرات »• وبناء على أمر تيمور فقد خلد الكل الى السكون ،وكان ذلك بدرجة كبيرة تشبه المعجزة ، اذ خلد كل شىء الى السكون بما فى ذلك الخيول والحيوانات الأخرى ، وأظهروا خضوعا ليس له مثيل •

وبعد انسحاب السلطان أصبح شعب دمشق بدون قيادة ، فشاع فيهم الاضطراب ، وبسبب اضطرابهم وحزنهم فانهم لم يعرفوا ماذا ينبغى عليهم أن يفعلوه[٣٣] • وقد أثار اعتدال العدو دهشتهم ، وتمنوا أن تنتهى الحرب فورا • وبمرور الوقت ساعة تلو أخرى فانهم لم يلحظوا

---

(٣١) الصعاب التى واجهها فريق السلطان فرج الهارب على يد الفلاحين الوطنيين (ومعظمهم من الدروز) اثناء فراره الى القاهرة قد وصفها ومر بها ايضا ابن خلدون عندما عاد فى تاريخ لاحق من دمشق الى القاهرة .

(*) عن هذه الصعاب انظر المصادر العربية التالية :

ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٣٧—٢٣٨ ،

المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ،

العينى : عقد الجمان مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٤—١٨٥ ؛ ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٣٢) يبدو انه يشير الى كرك نوح Karak Nuh انظر :

Gaudefroy — De Mombynes, La Syrie.., p. 74, 247.

(٣٣) بفرار السلطان فرج والأمراء اصبح اهل دمشق بلا قيادة عسكرية، وترك أمر الدفاع عن المدينة لسكانها الذين اغلقوا عليهم ابوابها .

من فوق أسوار المدينة شيئا غير عادى ، ولا أدنى جلبة فى الخارج حتى تطرق اليهم الشك بوجود خيانة عظمى . وأخيرا وعند الظهيرة قرروا فى ذلة أن يطلبوا مرور سفرائهم فى أمان(٣٤) . (ص ٢١٨) وعندما منحوا ذلك الأمان ، أرسلوا القضاة الأربعة أى رجال الشريعة الى تيمور ، وهم رجال مهرة فى الشريعة ، وكذلك الكتاب الذين طلبهم تيمور(٣٥) . وعندما اقتيدوا الى حضرته اعتقدوا أنه سيستقبلهم استقبالا لائقـا ، ولكنهم وجدوا عكس ذلك ، فقد تظاهر أنه لا يراهم وأعطى موافقته لســماع الآخرين أولا . وأخيرا عندما اقترب المساء قال : « من هؤلاء الغرباء ؟ » كما لو كان لم يرهم من قبل . فخر القضـــاة على ركبهم وأغدقوا التملق

---

(٣٤) المقصود بعبارة Safe conduct هو الأمان فى التعبير العربى . وهو رسالة تتضمن السلامة الشخصيه لحاملها ، فهو مثـل جواز المرور . ونعلم من المصادر أن تامرلان أرسل اثنين من سفرائه بعد فرار فــرج الى أسوار دمشق ينادون من بعيد « بأن الأمير يرغب فى الصلح ، ومن أجل هذا أرسلوا رجلا عاقلا ليحدثه فى ذلك » . ولابد أن ذلك قد حدث فى ٩ ينــاير سنة ١٤٠١ م . اما طلب الأمان فربما جاء استجابة لعرض تامرلان : انظــر : السلوك ورقة ١٢٦ أ ، النجوم ج ٦ ص ٦٣ . ابن أياس ج ١ ص ٣٣١ .

(*) انظر أيضا : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٨—٢٣٩ ، المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن اياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ .

(٣٥) لا يذكر دى ميجنانللى اسماء القضاة الأربعة والوجهاء الآخــرين الذين ذهبوا لمقابلة تامرلان . وقد ذكرت المصادر العربية اسماءهم . فرئيــس الوفد هو القاضى الحنبلى تقى الدين ابراهيم بن مفلح (عنه انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٢ ، ١٥٣ ، السخاوى : ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨) .

ويقول ابن اياس فى ج ١ ص ٣٣١ أن ابن مفلح تم اختياره « لأنه يجيد التركية والفارسية » أما دى ميجنانللى فانه يغفل الظروف الخاصة التى أرغمت الوفد على تسلق اسوار دمشق على الحبال كما يقول البعض بسبب رفض نائب القلعة ان يسمح بفتح ابواب المدينة لهم لطلب العفو .

انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٢—٦٣ ، ابن اياس : ج ١ ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(*) وانظر ايضا : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٩ ؛ المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن اياس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ .
وعن القاضى ابن مفلح انظر : شمس الدين ابن طولون : قضاة دمشــــق « الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام » ص ٢٨٨—٢٨٩ ، حقق د. صلاح المنجد طبع دمشق ١٩٥٦ م .

والثناء على تيمور وقالوا : « نحن عبيد رحمتك ، وسفراء عبيدك شعب دمشق الذين يبذلون طاعة كل أمر لك ، وقد جئنا لطاعة أوامرك » • فأجابهم تيمور : « أريدكم أن تعرفوا أننى قد جئت الى هذه الأقاليم من بلدى البعيد ، وقد تكلفت نفقات وضرائب كبيرة من أجل أن أزيل عنكم مقـــت أنتم الطيبون أتباع محمد المخلصون (مع أن ايمانه فى الحقيقة بمحمـــد أقل من ايمانى أنا دى ميجنانللى) المرض القاتل الذى طالما عانى منـــه هذا البلد المقدس • اننى سوف أجاهد أن شاء الله لكى أحرركم من نير المسيحيين اللعين ، ومن نير السلطان وحاشيته (وأتمنى لو كانوا مسيحيين حقيقيين)(*) لأن السلطان وكل المسيحيين المزورين لا يحتكمون لأى قانون • لذلك وبدافع من توقير نبينا محمد المعظم الذى أخلصت له نفسى طويلا فان مدينة دمشق هذه وكما ترون أستطيع تدميرها مع كل ممتلكاتكم فانى أهبها وأمنحها وأسلمها لكم أنتم الذين تقيمون فى الوقت الحاضر داخل أسوارها بشرط أن أولئك الذين غادروها عندما علموا بقدومنا لن يشملهم عطفنا ومعروفنا • وبناء عليه فان كل ممتلكات السلطان وأتباعه والذين غادروا المدينة تضاف الى خزانتنا »(٣٦) •

وعندما سمع القضاة الحمقى هذه الكلمات فانهم بكوا فرحا وأجابوا بأنهم يشكرون الله فى الحال لقدوم (ص ٢١٩) أمير له كل ذلك الاخلاص والتقوى والرحمة ، فهو أب كبير وراع وعلى علم بالشريعة المحمدية ، والذى تكرم الله فوهبه لشعبه المؤمن • ووضعوا أنفسهم تحت طاعة ذلك الأمير ، وعرضوا أن يطيعوا توصـــياته خصـــوصا فيما يتعلق بممتلكات السلطان وأتباعه • وقد بدأ ذلك عادلا وشرعيا طالمـــا أن هؤلاء الرجال

(*) هذه الأمنية بين حاصرتين ، ويبدو انها صادرة عن دى ميجنانللى فى النص الأصـــلى •

(٣٦) رواية دى مبجنانللى هنا تضاهى فى النقاط الرئيسة التفاصـــيل الدقيقه الوارده فى المصادر العربية •

(*) انظر المصادر العربية التالية : المقريزى • كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٣ • ابن اياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦١٣—٦١٤ •

الأغبياء المجردين من العقل لم يعرفوا ما الذى سوف يجلبه المستقبل عليهم •

رحل القضاة فى فرح وحبور بعد أن وعدوا تيمور بالعودة الى معسكره فى اليوم الذى يرغب فيه ، ثم دخلوا دمشق وأحاطوا أهلها علما بما وقع وشجعوهم على قبول مطالب تيمور ، اذ أن ذلك من حسن الطالع لهم(٣٧) • وطبقا لعاداتهم فقد ساروا فى موكب عبر المدينة وضواحيها الرحبة يغنون ويمحدون الله سبحانه وتعالى حمدا لا يحصى ولا يعد • وقاموا بالبحث عن ممتلكات الذين حددهم تيمور بدقة وعناية • ومن عجب أن من أسند اليه منهم مهمة البحث عن تلك الممتلكات — وهم كثير — كانوا من الحماقة بحيث أن من وجد منهم قدرا أكبر من الممتلكات كان يعتبر رجلا مباركا ومخلصا لله • وهكذا فان خيام السلطان وأتباعه ، وخيولهم وبغالهم وابلهم وحملانهم ودوابهم وكل ما وجدوه — وهو كثير العدد — أهدوه لخزانة تيمور • وبعد أن جرى البحث الدقيق والشامل فان ممتلكات المواطنين الغائبين وأولئك الذين كانوا يعيشون من قبل فى دمشق أحضرت الى الخزانة • واعتاد القضاة الأربعة الذهاب مرتين كل يوم الى خيام تيمور التى كانت على بعد ميلين ايطالى من المدينة • وقام القاضى الشافعى رئيسهم والقاضى الحنفى والقاضى المالكى والقاضى الحنبلى باعداد الترتيبات لمواطنيهم لاحضار المؤن الى معسكر تيمور ليلا ونهارا • وبناء على أوامر تيمور التى تبعث على الذهول فانهم كانوا يترددون جيئة وذهابا على المعسكر فى أمان وهم يحملون ثروات لا يصدقها العقل وأصبحت المدينة تعج بحركة دائبة مثل تل النمل •

وتجول موظفو تيمور مع هؤلاء الذين فى المدينة خلال طرقاتها

---

(٣٧) عارض بعض قادة دمشق فى قبول عرض السلام عند عودة ابن مفلح من زيارته الأولى لتيمور ، لكن آراء ابن مفلح هى التى سادت فى النهاية • السلوك ورقة ٢٦ ب ، النجوم جـ ٦ ص ٦٣ •

(*) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٠ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن اياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦١٠ •

وأحيائها يزورون أصحاب الحوانيت ومراكز العمل والحرفيين ، كما زاروا أيضا الأماكن التى تتم فيها المعاملات التجارية ، فاذا لم يلب دعوتهم من نودى عليه من أصحاب الحوانيت فانهم كانوا يكسرون باب حانوته ثم يعبئون كل ما فى داخله فى سلال ويحملونها الى الخزانة ٠ وكانوا يقررون أن تلك الممتلكات هى لرجل ظالم لا يثق فى رحمة ذلك الأمير الكبير ، وهارب من وجهه ، وغير راغب فى انتظار معروفه ٠ (ص ٢٢٠) أما اذا أجاب صاحب الحانوت فان كل شىء فى حانوته يسجل عن آخره فى وثيقة جرد موثقة ويحتفظون بها ؛ وربما يقولون . « نحن نفعل ذلك بناء على أمر سيدنا لكى تتجنبوا المتاعب وخطر النهب الذى قد يقوم به الأشرار لدينا والذين سوف يسعدهم أن يسلبوكم ، وهكذا فانه بعملنا لن يجرؤ أحد على الحصول على ما ليس مستحقا له ٠ فاذا ما حدث أى سلب — وقد لا يحدث ذلك مطلقا — فان سيدنا سيعمل عى رفع الظلم بأمانة وحق كما هو مدون فى وثيقة الجرد » ٠ وبعد انتهائهم من الجرد كانوا يسلمون المفتاح لمالك الحانوت وهم يقولون : « احفظ حانوتك ؛ وبع بضاعتك ، افعل ما تشاء ؛ ووزع سلعك وفق ما نشاء » ، وفى نفس الوقت يكونون قد أثبتوا مبالغ النقود التى أحصوها فى الحانوت ٠ وبهذه الطريقة حصلوا على بيان بكل ما هو موجود فى المدينة بالاضافة الى قدر هائل من الثروات التى تم نقلها الى الخزانة ٠ وكثير من هؤلاء الرجال الحمقى الذين كتبوا قائمة بممتلكاتهم فى وثيقة الجرد وقد رأوا بضائع الآخرين الذين كانوا غائبين عن المدينة تنقل قسرا شكروا الله ، واعتقدوا أنهم أكثر حكمة من هؤلاء الذين غادروا المدينة[٣٨] ٠

وبعد أن تم كل ذلك أمر تيمور سكان دمشق بألا يسمحوا لأحد من أصدقائهم أو عائلاتهم بدخول المدينة باستثناء قلة تم تحديدها ، وقد زعم

(٣٨) تؤكد المصادر العربية بمزيد من التفاصيل كل هذه المسائل : البحث عن ممتلكات السلطان والأمراء والتجار والحكام البارزين الآخرين الذين لاذوا بالفرار من دمشق وقد تركوا وراءهم أسلحتهم وخيولهم وبغالهم ٠٠ الخ .

أنه فعل ذلك من أجل حماية وسلامة دمشق وسكانها • ولقد كان كاذبا فى ذلك ، لأنه كان يضمر شيئا آخر كما سيتضح فيما بعد • ثم أمر باغلاق طرقات المدينة فى الأحياء الكبيرة ، كما أمر بانزال البوابات حتى لا يستطيع الانسان أن يدخل منها أو يخرج الا منحنيا • وزعم بأنه على ذلك النحو ستتوفر لهم حماية أفضل ، ولكن

قادرين على نقل أى شىء من الداخل

أبواب المدينة ليلا ونهارا بواسطة رجال الخصوص

المريبة هذه أمر فى أحدى الليالى بشنق بعض الف :

ثيابا مثل ثياب جنوده ، وزعم بأنهم من معسكره ، وأنهم أرادو

دمشق من داخلها وخارجها • وعندما رأى سكان دمشق الأغبياء ذلك صدقوه دون تردد ، ولوحوا بقبضاتهم فى وجوه هؤلاء الذين حكم عليهم بالشنق وقالوا : « انكم لم تستفيدوا شيئا أنتم يا من قدمتم من بعيد كى تقترفوا الجرائم » • وأقاموا الصلوات فى خشوع وتضرع الله سبحانه وتعالى كى يطيل فى حياة ذلك الأمير الكبير ويمنحه الشرف العظيم(٣٩) • (ص ٢٢١) وأعلن تيمور أنه يرغب فى شق طريق من دمشق الى عاصمته سمرقند وأن يوفر له الحراسة ليلا ونهارا حتى يتسنى للتجار تبادل بضائعهم بين المدينتين ويزدادون ثراء • وقد صدق حمقى دمشق كل ذلك من قلوبهم •

وكانت قلعة دمشق ذات موقع حصين وتمتاز بالجمال من الداخل والخارج ، فأمر تيمور بمهاجمتها فورا ودون ابطاء ، فاستسلم الحصن

---

(٣٩) هذه القصة لا توجد فى المصادر •

بعد أيام قليلة[٤٠] . ثم أمر بدكه وتسويته بالأرض[٤١] . وبعد أن أستولى على القلعة قال للقضاة الأربعة الكبار « لقد أحجمت بقـــدر الامكان عن أثقالكم بالأعباء لأننى قد توقعت أن أجد فى قاعتكم المشهورة مبلغا حبيرا من نقود السلطان غير أنى لم أجد ذلك . فأنا مندهش وأصبت بخيبة أمل . أننى حزين لأنه بسببكم لا أستطيع تقديم المساعدة لرجالى المحاربين ، وبوجه خاص أولئك الذين يسمون Ciacathy [٤٢] الذين أهملوا وهم يستحقون مكافأة بسبب شجاعتهم ومكانتهم الكبيرة وأنا أقدرهم أكثر من الآخرين . لذلك يجب أن تساعدوهم وتعطوهم شيئا » . فأجابه القضاة

---

(٤٠) ليس ذلك صحيحا على وجه الدقة فى ضوء المصادر العربية . اذ أن حصار القلعة الذى بدأ فيما يبدو فى ١٤ يناير استمر ثلاثة وأربعين يوما طبقا لما قاله ابن عربشاه جـ ٢ ص ٩٨ . أما الاستسلام الفعلى للحصن فقد حدث فى ٢٥ فبراير . أما المقريزى وابن تغرى بردى وابن اياس فقد عدوا تسعة وعشرين يوما من وقت الحصار . وقد وصفت المصادر استعداد تامرلان للهجوم على القلعة والدفاع البطولى الذى قامت به الحامية المملوكية الصغيرة فى مواجهة قوات العدو الساحقة .

(*) عن الدفاع البطولى الذى قامت به حامية قلعة دمشق انظر :

ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٢—٢٤٣ .

(٤١) كان نائب دمشق فى تلك الفترة هو يزدار Yazzadar طبقا لرواية العينى ورقة ٤١ ب . أما ابن عربشاه فى جـ ٢ ص ٧٦ فيطلق عليه اسم أزدار Azdar . وشرف الدين فى جـ ٣ ص ٣٣٥ ، ٣٣٨ يسميه بازدار Yazdar « حارس القلعة » .

(*) وفى نزهة النفوس للخطيب الجوهرى جـ ٢ ص ٨٨ هو الأمير يزدار .

(٤٢) تشير هذه التسمية دون شك الى احد ابناء جنكيزخان الاربعة وهو جغطاى jaghatai الذى كان بحكم تركستان وكشغار وفرغانة وأراضى أخرى فيما وراء نهر جيحون Oxus . وكان جغطاى بسبب معـــرفته الواسعة بقانون المغول القبلى الذى يعرف بالياسة له نفوذ كبير ، كما أن أتباعه فى جيش تامرلان كان لهم مكانة خاصة متميزة . انظر :

Barthold, verlesungen, pp. 214, 217 ; ulus Beg, pp. 17-25, Clavijo, pp. 190-191.

وانظر ايضا : ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ؛

Encyclopaedia of Islam, S.V. Caghatai-Khan

الأربعة : « لم يبق منا على قيد الحياة الا قلة فقط ، ونحن غقراء ، ومثل الرجال المهجورين ولا نملك شيء » • فقال لهم تيمور : « أنا لا أطلب منكم ما هو فوق طاقتكم » • وأخيرا توصلوا الى اتفاق على اعطائه مبلغ مليون وستمائة ألف دراخمة من الفضة[٤٣] • ولم يحددوا أى نوع من الدراخمة يقصدون « وكانت فى الواقع مشابهة لدراخمة دمشـــق » لكنها نعـــادل ثمانمائة ألف من الدوكات • وبعد أيام أحضروا الدراخمات من ذلك النوع اليه •

وأراد تيمور أن يرى ويلمس النقود التى كان أكثر من نصفها فى الواقع من الفضة • (ص ٢٢٢) والباقى من النحاس مثل عملة ســـائر الاقليم أى سوريا ومصر • وعندما شاهدها تيمور ولمسها تظاهر بالغضب لأنه أدرك جيدا طبيعة العملة وحالة الاقليم وقال : « ما هذا ؟ » فأجاب القضاة : « انها النقود التى وعدناك بها » فسأل تيمور : « وكم وعدتم ؟ » فأجابوا مليون وستمائة ألف » ، فقال تيمور : « هذا صحيح » ، فقـــال القضاة : « اذن خذها بسرور وها هى » فقال لهم : « لقد سمعت عنكم دائما أيها الدماشقة انكم لستم رجالا بل شياطين ملعونين أعداء شريعة الله والانسانية ، ويملؤكم الشر . ورجالا لا يحفظون عهودهم • ولقد نطق بالحقيقة من قال بأن شعب دمشق كانوا رجالا أشرارا • هل تريدون أن تخدعونى كما خدعتم الآخرين بنقودكم المزيفة والرديئة التى رفضها الجميع بازدراء ؟ » • وفى الحال أحضر الى مجلسه دراخمة باده[٤٤] ،

---

(٤٣) سحدث المصادر عن مبلغ يصل الى مليون دينار •

(*) انظر المصادر العربية التالية : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ • ابن اياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦١١ — ٦١٢ •

(٤٤) عن العملة المستخدمه فى ذلك الوقت والفوارق فى نسب نحو ... انظر : النجوم جـ ٦ ص ٦٥ ؛ ابن اياس جـ ١ ص ٣٣٣ ، السلوك ورقة ٢٧ أ .

(*) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤١ • ٢٤٢ • ابن اياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦١٢ — ٦١٣ ؛ المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٨ — ١٠٤٩ •

وكانت هذه من الفضة الخالصة وأكثر ثقلا من عملات دمشق حتى أن واحدة من عملات تيمور كانت تزيد أكثر من اثنى عشرة من عملات دمشق • وقال تيمور عندئذ : « هذه نقودى التى أعرف لها قيمة والتى ان مارست بها فى أى مكان أعمالى التجارية فانها تشرفنى • وعملتكم الزائفة التى لم أرها من قبل ليست لها قيمة ومرفوضة من الجميع » •

وعندما سمع القضاة ذلك هبوا واقفين شبه موتى من الرعب وقالوا وهم يبكون : « من العسير أن يصل بنا الأمر الى هذا الحد وأن نظل فى خدمتك » • ثم ان ضباط وقادة تيمور بدأوا يتصايحون بصـــوت عال قائلين : « ضع حدا للأتفاقية التى أبرمت بيننا وبينهم ، ودعنا نتعامل معهم ، لأننا نعلم ما يجب عمله مع هؤلاء الناس الذين لا يصلحون لشىء » • فقال لهم تيمور : « مهلا يا أبنائى ، فمع انكم تطلبون ما هو عادل فانه من الأفضل أن تتذرعوا بالصبر هنيهة » ، ثم انتحى بالقضاة جانبا وقال : « لاحظوا هياج هؤلاء الرجال الذين يطلبون ما هو عادل ، وأنظروا كيف يهددونكم ، لذلك يجب اما أن تعطوا موافقتكم على الاتفاقية فيما يتعلق بالسداد والتى خرجت من يدى الآن ، وأن تطلبوا الرحمة من هـــؤلاء الرجال » ، فاضطرب القضاة وانتابهم الفزع وطلبوا أن يطلق سراحهم حتى اليوم التالى ليكون فى مقدورهم مناقشة تلك الصعاب مع مواطنيهم ثم يعطوا ردا وافيا فمنحوا ذلك[٤٥] •

ودخل القضاة المدينة وجمعوا مواطنيهم وأخبروهم عن وحشـــية السيكاثيين Ciacathari الذين كانوا رجالا مرعبين ، وتحدثوا عن الكيفية (ص ٢٢٣) التى سينتهى بها هذا الأمر — ونعتقد أنها نهـــاية مؤسفة — ، وأخيرا فانه بسبب خوفهم ولتجنب ما هو أسوأ قرروا أن يدفعوا ، وقد دفعوا ، أعنى تسعمائة وستين ألفا من الدوكات • ثم أن

---

(٤٥) ورد فى المصادر المشاورات التى دارت بين القضاة ومساعديهم من ناحية واهل دمشق من ناحية أخرى •

تيمور طلب بعد أيام قليلة نقودا للاخرين الذين يطلق عليهم اسم «الخراسانيين » Corasenis ⁽⁴٦⁾ ، فرفض شعب دمشق ذلك • وقد طلب هؤلاء الرجال مبالغ مبالغ أكثر لأنهم يفوقون السيكاثارين Ciocathars عددا : وقد نشب خلاف كبير ثم اضطروا الى الدفع لهم كما دفعوا الى السيكاثاريين • غير أنهم لم يدفعوا لهم مباشرة بل أعطوا النقود لتيمور الذى أخذها لنفسها ووضعها فى خزانته ؛ ولم ينل السيكاثاريون والخراسانيون الا الكلام المعسول • وعندما رأى شعب دمشق ذلك طلبوا الاذن بمغادرة المدينة مجردين من أى شىء : فرفض تيمور ذلك لأنه بعد ابتزازهم مرتين أراد ابتزازهم للمرة الثالثة ؛ فغد طلب أموالا لقبيلته مثلما طلب لأتباعه الآخرين • وعند ذك بكى القضاة ورفضوا لكنهم اذا لم ينزلوا على رغبة الأمير فانهم سوف يعانون من عذاب لا يتصور سيقع على أشخاصهم • فأى شىء آخر يمكنهم تقديمه (هذا اذا كان يمكنهم ذلك) الى شعب تيمور كى يشتروا سكونه عنهم بنفس القدر الذى قدموه الى السيكاثاريين والخراسانيين •

ونتيجة لعدم رضاء تيمور عن ذلك الموقف من القضاة . فانه أخذ يفكر فى طرق جديدة للابتزاز : فاستدعى قضاة دمشق الأربعة اليه زاعما أنه يرغب فى العودة الى بلده وشعبه ؛ وأنه لذلك يعتزم اذا امتد به الأجل تخليص شعب دمشق من كثير من الأعباء الثقيلة الكثيرة • واقترح أن يحقق لهم الثراء بمصاحبته من دمشق الى مدينته العظيمة سرقند حيث ينالون ثروة كبيرة ؛ وأنه سيعفيهم ن كل الضرائب أكراما لـ Calepind ⁽⁴٧⁾ • ثم طلب تيمور منهم أن يمدوه — لأنه شيخ كبير متهالك — ببعض المساعدات التى تعينه على رحلته الى وطنه الذى يرغب فى رؤيته ؛ وأن يقضى ما تبقى له من أيام عمره القليلة فى سلام •

---

(٤٦) من الواضح أن المقصو بهذه التسمية هم اهل خراسان •

(٤٧) هذا اللفظ غامض •

(*) يبدو أن كلمة Calepind هى تحريف لكلمة Caliph اى الخليفه •

وقد وعدهم بالكثير اذا ما تمت الرحلة بسلام الى بلاده ، فرفضوا ذلك تماما ، وبحرج شديد لعجزهم عن توفير المؤن ، ولكن عندما فكروا في رحيله فانهم شعروا فى داخلهم بالراحة . ودخل القضاة المدينة ووضعوا أمام الشعب التماس تيمور نيابة عنه ، وراحوا يواسون الشعب بكلمات جافة غير مستساغة عن رحيله المتوقع . وابتهج الدماشقة الحمقى الضعفاء المضطربون (ص ٢٢٤) لأنباء رحيل تيمور ، بيد أنه اعتراهم القلق لطلب الأموال . وفى النهاية عرضوا خمسمائة ألف من الدوكات وهم على ثقة من رحيله ، لكن تيمور رفض ذلك المبلغ بازدراء لأنه فى رأيه قليل جدا ، وطلب المزيد وقال بأنه اذا لم يحصل على مطلبه فسوف يبقى فى دمشق الى الأبد . وأخيرا جمعوا له مليونا وخمسمائة ألف من الدوكات وقدموه وهم يبكون ويولولون وقد راودهم الأمل عندئذ فى رحيله ، كما شعروا بقليل من الراحة . . .

وعندما استخدم تيمور كل سفسطته الخبيثة لكى يحملهم على تسليمه أموالهم لجأ الى وسائله الشريرة السافرة كى ينتزع منهم المال الذى طلبه ، فأرسل الى موظفيه الذين يحملون قوائم الجرد التى سبق الاشارة اليها ، كما استدعى أصحاب الحوانيت للمثول أمامه . واحيطوا علما بأنه نظرا لعدم كفاية المال المدفوع له فانه مضطر لاتخاذ وسائل أخرى من أجل النفقات التى سوف يحتاجها ذلك الجيش الكبير فى رحلته، لذلك فانه قرر بأن السلع والبضائع الموجودة فى حوانيتهم ومصانعهم يجب عليهم اما أن يفتدوها بالمال أو تحرق وتحول الى رماد ، فانتحب الدماشقة البؤساء وقالوا انهم لا يملكون شيئا . وعلى ذلك فان الذين لم يفتدوا بضائعهم فى الحال فانها حملت الى خزانة تيمور أو أحرقت ، ولهذا السبب فان الكثير قد افتدوا بضائعهم بالأموال التى يخفونها ، ودفعوا عنها فائدة حوالى نصف قيمتها . أما تيمور فاحتفظ بقوائم الجرد، وبالتالى استطاع ابتزاز مبالغ كبيرة من المال ، كما تم اثبات كل ما قدموه وما بقى فى الحوانيت فى قوائم الجرد . ثم انتقل تيمور الى ممتلكاتهم التى لا يمكن حملها ، وعلى سبيل المثال : منازلهم وحوانيتهم ومزارعهم

وأشياء من ذلك القبيل ، وقد باعوا هذه الأشياء بنصف قيمتها أو أقل ؛ أما تلك التى لم تبع فقد خربت تماما ، وهكذا تكدست لديه مبالغ كبيرة من المـــال(٤٨) .

وأخيرا عندما رأى تيمور أنه لم يعد فى استطاعته أخذ المزيد من الأموال سواء بالحق أو بالباطل استدعى نبلاءه وقواده وقال لهم : « لقد جمعت أموالا قليلة من هؤلاء الدماشقة التافهين بمشقة بالغة من جانبى . وادخرت النصيب الأكبر والأحسن لكم . انظروا . انى أهبكم ما تبقى . عليكم أن تكونوا أقوياء وأن تعرفوا كيف تتعاملون معهم »(٤٩) . ثم سلمهم قوائم الجرد وبها أسماء الملاك وأصحاب الحوانيت وقوائم البضـــائع والسلع وأماكنها . (ص ٢٢٥) كما أباح لهم سفك الدماء . فأطاعوه ونزلوا على رغبته طاعة الأبناء الأوفياء للأب الطيب . ودخلوا دمشق وقد تجردوا من كل القيم الانسانية واستدعوا الرجال الذين سلموا اليهم كسبايا . فابتدأوا بالاستيلاء على ممتلكاتهم ؛ ثم عذبوهم ضربا بالسياط ووخزا بالسكاكين وحرقا بالنار . ان القصة لا يمكن تصديقها اذا رويت . وهى أكثر اثارة للأسى اذا رؤيت ؛ لأنهم ربطوا الرجال الى قطعة من الخشب كما يربط الخنزير ثم أحاطوهم بالنيران من كل جانب كما يفعل عند شواء اللحم . ومع تقليب قطعة الخشب يشتد الألم بصورة لا تحتمل . ويعلو صراخ الضحايا ، وغالبا ما وضعوا قطع الحـــديد الساخن الى درجـــة

---

(٤٨) تتفق كل هذه التفاصيل الخاصة بفرض الضرائب وابتزاز الاموال من اهالى دمشق مع ما ورد فى المصادر العربية .

(*) انظر على سبيل المثال : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤١ــ ٢٤٥ . المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ــ١٠٥١ .

(٤٩) يقال أن تامرلان اذن لجنوده بنهب المدينة فى السادس عشر من مارس واستمر ثلاثة ايام . ويقول شرف الدين فى جـ ٣ ص ٣٤٣ « ان الجنود دخلوا دون تصريح ولكن الذى اهاجهم لعمل ذلك هو خطاب الفاه تامـــرلان واوقع فيه اللوم على السوريين لتأييدهم الأمويين فى حربهم ضد على .

(*) عن نهب مدينة دمشق انظر : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٤ــ٢٤٥ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥٠ .

الاحمرار على لحم الضحايا حتى يعلو الدخان وله رائحة اللحم المشوى • وبوسائل التعذيب هذه ضعف الكثير من الرجال فأظهروا ما كان لديهم من مبالغ هائلة تجنبا لمزيد من التعذيب الذى يفوق التصور •

وبعد أن استخدم رجال تيمور كل الوسائل المشروع منها وغير المشروع لاغتصاب الأموال ونضبت الموارد ، فان ذلك الرجل الملعون كما كان يلقب تيمور أمر بنقل كل شباب البلدة الوسيم ونسائها الجميلات وفتياتها الصغيرات والصناع المهرة وكل ما يمكن حمله باعداد كبيرة ، أمر تيمور بنقل كل هؤلاء الى معسكره خارج المدينة ، ثم أشعل النار فى مدينة دمشق بكل مبانيها(٥٠) • لقد شاء الله حدوث ذلك بسبب آثام وظلم الدماشقة الذى لا يوصف • ولقد خبرت بنفسى كثيرا من ذلك ، وجاءت ريح عاصفة ظلت تهب ثلاثة أيام بسرعة فائقة حتى أن أى سفينة كانت تبحر بسرعة خمسة عشر ميلا فى الساعة بصرف النظر عن نوع الشراع الذى تبحر به • وهكذا فانه لأمر محزن أن نقص كيف تحولت مدينة بهذه الضخامة الى جبل من الرماد(٥١) • وحتى لو كان شعب دمشق فاسدا

---

(٥٠) حدث ذلك بناء على أمر تامرلان فى ١٧ مارس • أما المؤرخ الفارسى شرف الدين فيزعم أن النيران قد اشتعلت فى المدينة بمحض الصدفة •

(*) تؤيد المصادر العربية اشعال النار فى مدينة دمشق • انظر : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٥ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، ابن أياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦١٦ •

(٥١) لا يشير دى ميجنانللى الى آخر الاعمال الشريرة التى ارتكبها جيش تامرلان ، وهو حرق الجامع الأموى • وربما كرجل مسيحى (دى ميجنانللى) لم يكن مهتما بذلك ، وربما تكون النار التى أشار اليها قد شملت المدينة والمسجد معا • عن حريق المسجد الأموى انظر :

Clavijo, pp. 173-195 ; Schiltberger, pp. 22-33 ; Memoire, p. 455;

وطبقا للمؤرخين الفرس فان تامرلان حاول بالفعل انقاذ المسجد وارسل شاه ملك لهذه المهمة • ولكن بالرغم من كل الجهود التى بذلها جنوده فان المئذنة الشرقية قد تحطمت تماما مع انها كانت مبنية من الحجر ، فى حين انقذت مئذنة المنبر بمعجزة مع أنها كانت خشبية • « وشبه ذلك بقضيب أو عصا المسيح » • انظر : شرف الدين ص ٣٤٦ ، نظام الدين ص ٢٣٠ •

جدا فاننى مضطر لأن أحزن على هلاكه . لقد تحققت كلمة النبى اشعيا فى الفصل ١٧(٥٢) الذى كان موضوعه دمشق « انظروا (ص ٢٢٦) ان دمشق ستنتهى كمدينة وتتحول الى كومة من الأحجار » . وأيضا تحققت كلمات جرميا التى جاءت فى منتصف الفصل التاسع والأربعين(٥٣) . يجب أن نحزن حقيقة على المدينة الجميلة ، ومن غير شك فان دمشق لم تكن ضخمة جدا فهى تبدو أصغر قليلا من مدينة بيزانا Pisana ؛ وهى تقع فى سهل ، ولها حصون قوية وضواحى . وكانت كثيفة السكان اذ بلغ تعدادهم — فيما يعتقد — عندئذ مائة ألف مواطن(٥٤) . أما من الداخل فكانت غاية فى الجمال وتسر الناظرين ، وبيوتها الرائعة جدا كانت مغطاة من قمتها الى قاعدتها بالحجارة المتعددة الألوان ؛ وفى وسطها نافورة

= Shaéraf ad-Din, p. 346 ; Nizam ad-Din, p. 230.

وطبقا لابن عربشاه جـ ٢ ص ١٣٢ فان رافضة خراسان قد أشعلوا النار فى المسجد .

(*) تؤكد المصادر العربية احراق مسجد بنى أمية ، انظر ابن تغرى بردى جـ ١٢ ص ٢٤٥—٢٤٦ حيث يقول « وسقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق . وزالت أبوابه ، وتفطر رخامه ، ولم يبق غير جدره قائمة » . وانظر ايضا : المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ١١٧ .

(٥٢) يشير الى اشعيا فصل ١٧/آية (١) .

(٥٣) انظر جرميا فصل ١٩/آيات ٢٣—٢٧ .

(٥٤) تشير تقارير الرحالة الأوربيين المعاصرين الى نفس حجم التعداد تقريبا . انظر :

B. de la Brocquiere, Piloti, frescobaldi etc...

وايضا الاشارات الى ذلك فى :

Heyd, Levante handel,

(*) انظر رحلات بروكيير فى :

Thomas Wright, early travels, The travels of B. de la Brocquiere A D-1432-1433, p. 294.

تقذف بتيار مستمر من الماء المتدفق فى اتجاه السماء • وكانت تلك النافورة هى مصدر مياههم للطبخ وغسل كل الأشياء المتعلقة بهذه العملية • وكانت المدينة تزخر بكثير من النافورات فى الأحياء والطرقات • وليست لى ميول تجاه المياه التى من ذلك النوع لأنها ضارة جدا لنا نحن اللاتين •

وكان فى دمشق رئيس رسمى لكل حرفة تحت الشمس تقريبا ، للذهب والفضة والحديد والقطن والكتان والزجاج والنحاس الأصفر(٥٥) • وكانت هذه المناطق الريفية تنتج بصفة عامة من ماء الورد الرائع ناتجا سنويا يحتاج الى أربعة آلاف بغل لنقله ، وهو ما يعادل ألف مكيـال طبقا لمكاييل سينا Siena أى ألف أو ألف ومائة بوشل Bushels من نابلى • كما كان ينتج فى كل عام فى ثمان مطابخ ما مقداره من السكر ثلاثة أو أربعة آلاف جرة • وقد كانت هذه المطابخ ذائعة الصيت آنذاك فى هذه الصناعة • وكانت جرة السكر الدمشقية آنذاك تحتـوى على ستمائة رطل بندقى • حقا ان هناك أشياء خرافية كثيرة يمكن ذكرها عن تلك المدينة وعن اضمحلالها الشديد بعد تدميرها وخرابها بصورة تثير الأسى عند سماعها ، كما أنها أكثر اثارة عند رؤيتها • وأنا لا أنوى تسجيل هذه الأشياء ، لكن حسبى أن أقول أن أهل دمشق يتفوقون بكثير عمن سواهم فى المشرق بأسره فى الشر والخبث باستثناء أولئك الذين قدموا من بيت المقدس ، فهم أكثر سوءا(٥٦) •

وعندما سأل تيمور أحد الدماشقة الذين وقعوا فى الأسر « ماذا تقول عنى أنا الذى فعلت مثل هذه الأعمال الكبيرة ؟ » ، أجابه الدمشقى بتملق

---

(٥٥) ثمة اشارة الى نقابات الحرفيين فى دمشق ، ويعطينا دى ميجنانللى وصفا شيقا للموقف الاقتصادى فى ذلك الوقت .

(٥٦) لابد ان دى ميجنانللى شأنه فى ذلك شأن غالبية المسيحيين المتبهين هناك كانت له تجارب مريرة جدا مع السكان المسلمين فى دمشق . كما ان دى لابروكيير يشير أيضا الى معاملة المسيحيين فى دمشق فى ذلك الوقت .

de la Brocquiere, pp. 293-294.

ومدح زائف : « أمير لا يقارن عظيم فى القوة والشجاعة ، مبجل ، عطوف وحنون ، وجدير بكل مدح » (ص ٢٢٧) فأجابه تيمور : « انك كاذب ، فأنا سوط عذاب اختاره الله لمعاقبتكم لأنه لا يوجد هناك من يعرف علاج آثامكم الا أنا ، انك شرير ، وأنا أكثر منك شرا . لذا عليك بالصمت »[٥٧].

ولا يوجد اتفاق حول الاستعراض العسكرى الضخم الذى أقامه تيمور لجيشه ، فقد قيــل انه كان لديه ثمانمائة ألف رجــل[٥٨] . ومن المعلومات التى سمعتها فى ذلك الوقت ومن مصادر جيدة أمكننى اكتشاف الرقم : فباحصاء الشغالة وقاطعى الأحجار وصانعى الأحذية والمكاريين

---

(٥٧) لابد أن المقصود بهذا الدمشقى هو ابن خلدون الذى ســمع دى ميجناللى عن لقائه الشخصى مع تامرلان . وأن الوصف الوارد هنا خاصــة عبارات التملق تناسب وتتفق مع وصف ابن خلدون نفسه للقــائه مع هــذا الغازى . ويبدو أن دى ميجناللى لم يكن على علم بالموضوعات الرئيســية التى دارت حولها مناقشة ابن خلدون مع تامرلان فى أوائل عام ١٤٠١ م فى دمشق . وقد قرر ابن خلدون فى لقائه مع تامرلان الآتى : « لقد اشتقت طيلة ثلاثين أو أربعين عاما للقائك ، وانه لم يكن هناك على ظهر الأرض منذ ادم حتى هذا العصر حاكم مثلك » . ومن ثم فابن خلدون يعطينا الانطباع بأنه تتبع حياة تامرلان خلال جيل كامل ، وانه قد حصل على معلومات كثيرة عن حياته ونشاطه .

لمزيد من التفاصيل انظر :

W. J. fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, pp. 36-37, 81-82.

(*) عن هذا الموضوع انظر أيضا :

ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . نشرها محمد بن تاويت الطنجى ص ٣٦٨ـــ٣٧٤ . والتر فشل : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك . ترجمة محمد توفيق ص ٧١ـــ٧٧ .

(٥٨) ثمة تقارير متضاربه كثيرة عن جيش تامرلان فى المصادر العربية والأوربية . ويقول ابن الفرات جـ ٢ ص ٣٧٠ ان قوة جيش تامرلان بلغت مائتين وأربعين الفا ، منهم ثلاثون الف محارب . أما ابن عربشاه جـ ١ ص ٦١٦ فانه يقرر بأن قوة جيش تامرلان العديدة بلغت ثمانمائة الف .

(*) يفترض ابن خلدون أن جيش تيمورلنك كان اكثر من مليون . انظر : والتر فشل . لقاء ابن خلدون ص ٨٥ .

والنجارين والبنائين والحرفيين والطهاة والطحانين ، ومن يقومون بأعمال يدوية أخرى ، باحصاء كل هؤلاء أؤكد أن قوام الجيش لم يزد على ثلاثمائة ألف ، ولم يكن لديه محاربون بالرماح لأنهم لم يتدربوا على استخدامها ، فقد كانوا يستخدمون السيوف والأقواس فقط • وكانوا يحملون دائما التروس الكبيرة بدلا من دروع الصدر والدروع الأخرى الكبيرة • وكان تيمور غالبا ما يقود بنفسه ثلاثين ألفا من رجاله ، كما كان لديه جياد صغيرة الحجم مدربة على الحياة الشاقة(٥٩) ، وكل رجاله ودواب حمله كانت تتحمل مجهودات شاقة لا تصدق •

كان تيمور فى ذلك الوقت كما قال رجاله فى الرابعة والسبعين من عمره(٦٠) ، اننى لم أره بنفسى كما رفضت أن آراه ، ولكى اتجنب مثل ذلك الاحتمال فاننى هربت الى مصر • ولقد كان أعرجا بدرجة كبيرة حتى أنه كانت لديه قدم مرفوعة عن الأرض لأن رجله هذه كانت مشلولة • ويقال بأن ذلك قد حدث باحدى طريقتين (ص ٢٢٨) لا أميل الى تأييدهما أو

---

(٥٩) انظـــر :

G. Roloff, Asiatische und europaische Kriegfuhrang, in : Der Islam, 1940, vol. 26, pp. 110-115 and E. strauss, Toldoth ha-yehudim, pp. 14-15.

(٦٠) لمـــا كان من المعتقد بصفة عامة أن تامرلان ولد فى ٨ ابريل ١٣٣٦م/ ٧٣٦ هـ فلابد انه كان فى حوالى الخامسة والستين من عمره عندما كان فى دمشق • وطبقا للنجوم جـ ٦ ص ٢٨١ ، ابن عربشاه جـ ٢ ص ٧٨٢ فان تامرلان عمر حتى سن الثمانين ، وانه مات فى عام ١٤٠٥م/٨٠٦ هـ طبقا للمصـــادر العربية •

نفيهما(٦١) • لقد قيل انه قد جرح بمقذوف وهو فى شبابه فأصيب أحد جانبيه بالعجز • ويقول البعض بأن ذلك قد حدث له عندما أسر وهو يقوم بأعمال قطع الطرق واللصوصية • وأراد أولئك الذين أسروه قتله لمنعه من ارتكاب المزيد من الجرائم ، ولكنه نجا من الموت بسحر كلماته التى برع فيها وأجادها ، وبقسمه ووعده أن يضع حدا لعمليات النهب • وكان تيمور رجلا فى غاية الوسامة واللطف ، يتمتع بمظهر رقيق وودود(٦٢) • ويعارض ذلك رأى أفلاطون فى أن الجمال يقترن بالطيبة ، لأن تيمور كان وسيما ومع ذلك كان شريرا • وقد زاد شره مع تقدمه فى السن •

---

(٦١) تقول كل المصادر أن تيمور أصابه العرج بسبب سه (النجوم جـ ٦ ص ٧٤) • وطبقا لكلافجو Clavijo, p. 217 فإن ساقه اليمنى عندما كان يقوم بغارة على سستان ، وأنه ظل نت اعرجا طيلة حياته • وفضلا عن فقد أصابه جرح فى يده اليه اصبعين صغيرين • أما لفظ أعرج فى الفارسية فهو Lank ومن ثم جاءت كلمة Timurlank تيمورلنك • وفيما بعد أصبحت تامرلان Tamerlane فى الاستعمال الأوربى •

(٦٢) عن المظهر الجسمانى لتامرلان انظر :

ابن عربشاه جـ ٢ ص ٧٨٠—٧٨٢ ،

Clavijo, p. 22 ; Memoire, p. 463,

وانظر النجوم جـ ٦ ص ٢٨١ حيث قال : « وكان تيمور طويل القامة ، كبير الجبهة ، عظيم الهامة ، شديد القوة ، أبيض اللون مشربا بحمرة ، عريض الأكتاف ، غليظ الأصابع مسترسل اللحية ، أشل اليد ، أعرج اليمنى ، تتوقد عيناه ، جهير الصوت ، لا يهاب الموت ، قد بلغ الثمانيين وهو متمتع بحواسه وقوته » •

(*) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٣ « تحقيق فهيم محمد شلتوت — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنه ١٩٧٠ م » ص ١٦٢ •

ويلاحظ أن ابن اياس أورد صفات جسمية لتيمور مخالفة فقال « وقد كان تيمورلنك مع وجود هذه السطوه العظيمة اعرج بوركه اليمنى • • قصير القامة • غليظ الجسد مستدير اللحية • وقد وكزه الشيب • ولم يكن ينسب الى فروسية ولا شجاعة ، ولكنه كان كثير الحيل والخداع » • انظر : ابن اياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦١٩ •

وعندما كان تيمور شابا تزوج سيدة كهلة غنية تسمى قمر الدين[٦٣] ، وظل طوال حكم ابن زوجته المعروف باسم السلطان محمود عادلا[٦٤] وصالحا ورحيما وسخيا بافراط وموضع ثناء . ولكن عندما نقدم به العمر وذهب الى ثانا Thana فى بلاد التتر سنة ١٣٩٥ م — وكنت آنذاك اقيم فى دمشق ، فانه أصبح موضع اللعنات العلنية ، وازداد ظلمه فداحة .

اننى لم اعبر عن حزنى العميق لتدمير دمشق ، تلك المدينة العظيمة ، دون سبب وجيه ، فقد جئت اليها شابا فقيرا معدما ، ووجدت فيها الثروة الوفيرة والشرف العظيم ، لكن ذلك كان يقابله الكثير من الجهد والمخاطر الجمة التى تعرضت لها من جراء خبث هؤلاء الناس . مع أن ما عانيت منه كان أقل مما عانى منه غيرى من المسيحيين . وكثيرا ما عانيت على يديهم ، وفى بعض الأحيان لم يمر هؤلاء دون عقاب ، فكثيرا ما نشرت الخوف فى قلوب أولئك الرجال الوقحين . (ص ٢٢٩) وطالما أن السلاطين الذين كانوا يحكمون هذه المناطق[٦٥] معجبين بنا نحن اللاتين فقد ينتهى الأمر

---

(٦٣) لا تؤيد المصادر ذلك ، انظر :

Encyclopaedia of Islam, S.V. «Timurlang», vol. IV, p. 779.

(٦٤) الاشارة هنا الى السلطان محمود ابن زوجته . ولم يكن تامرلان فى حقيقة الأمر ملكا أو حاكما اذ أن الجالس على العرش « صاحب التخت » كان محمود خان الذى عينه تامرلان سلطانا فى حين قام تارلان بادارة شئون الحكم . أما اسم والد محمود فهو صرغتمش Suyurghatmish ، وقد تزوج تامرلان بام محود بعد وفاة والده . « انظر النجوم جـ ٦ ص ٨٤ ، ١٥٨ » . وبعد غزو دمشق أمر تامرلان بأن تقام الصلوات فى المسجد الأموى حيث يذكر اسم السلطان محمود وولى عهده ، فالخان المعين أو الحاكم كان يذكر اسمه فى صلاة الجمعة . (النجوم جـ ٦ ص ٦٥) .

(*) انظر النجوم جـ ١٢ ص ٢٤٢ .

(٦٥) يشير الى السلطان المملوكى برقوق ١٣٨٢—١٣٩٩ م وابنه فرج ١٣٩٩—١٤١٢ م .

بضرب من يسيء الى بالسياط بقسوة على يد المماليك الى حد نزف الدماء ، وبهذه الطريقة كبحت جماح خبث المواطنين الأشرار الى درجة كبيرة .

ورأى تيمور أن قبيلته قد أثقلت بالممتلكات والكنوز ، وعلم أن السلطان التركى بايزيد قد جمع جيشا كبيرا بهدف الاستيلاء على سوريا، كما تطلع الى ذلك من قبل : اذا تقدم تيمور الى القاهرة حسبما سارت به الشائعات . وعندئذ فكر تيمور وقرر وهو مثقل بالأسلاب والسبايا أن يعود الى بلاده بصفة مؤقتة(٦٦) . فاصطحب معه العذارى الصغار الحسناوات والأولاد وسائر رؤساء الحرف الرسميين الذين حفلت دمشق بعدد كبير منهم ، وترك تلك المدينة فى حالة خراب وقد احترقت مثل تل من الرماد(٦٧) . وبقى فى أحد أرجاء المدينة عدد قليل من المنازل الصغيرة التى لم تمتد اليها النيران وهى تخص مسيحيى كنتورا Centura على الجانب الشرقى(٦٨) . ومن الحقائق المسلم بها أن النار ظلت مشتعلة بضراوة فى المدينة بعد رحيل تيمور طيلة تسعة شهور ، ولقد شهدت ذلك

---

(٦٦) جاء فى النجوم ج ٦ ص ٨١ ان تامرلان لم يعد حقيقة الى وطنه ، لكنه أعطى الانطباع بانه سيفعل ذلك حتى يصرف انتباه اعدائه . وفى نهاية الأمر خدع جيوشه عمدا وسار للمرة الثانية الى حلب ثم اتجه عن طريق الرها وماردين فجأة الى بغداد فى ٩ يولية سنة ١٤٠١ م ، وبعد ذلك اتجه الى آسيا الصغرى حيث اوقع الهزيمة بجيوش العثمانيين بقيادة بايزيد فى موقعة انقرة الشهيرة .

(*) انظر النجوم ج ١٢ طبعة دار الكتب المصرية ص ٢٦٥—٢٦٨ .

(٦٧) هناك اتفاق عام بين كل المصادر على نقل تامرلان الحرفيين من دمشق الى سمرقند . ومن المعروف أيضا أن تامرلان اخذ معه الى سمرقند عمال مهرة وحرفيين من كل نوع من دمشق والمدن الأخرى . وطبقا لكلافيجو وشرف الدين فان تامرلان اخذ كل النساجين وصناع الأقواس والحرفيين من صناع الزجاج والبورسلين من دمشق . انظر :

Clavijo, p. 134, 287 ; sharaf ad-Din, III, pp. 340-347 ; Heyd, Levante handel, pp. 467-468.

(٦٨) لم يكن الاستدلال على هذا اللفظ .

بنفسى ، لذا فليتق كل الناس عدالة الله القهار سبحانه وتعالى . وليحذر المرء من أن يستمد المجد من ظلمه مهما بلغت قوته ، فقد أراد الله أن ينتقم منهم بقسوة شديدة لخطاياهم ، فلم يعد لديهم ما يقتاتون به لأن كل شىء قد امتدت اليه يد التدمير ، وكان عليهم أن يجلبوا المؤن من مسافات بعيدة . وأرسل الله عليهم من السماء حشودا هائلة من الجراد المفترس، وقد حدث ذلك فى شهرى مارس وابريل بعد رحيل تيمور الذى غادر دمشق فى مارس(٦٩) .

ونتيجة لذلك فانهم لم يستطيعوا حصد محاصيلهم فى ذلك العام ، فقد التهم الجراد كل شىء ، ليس فقط براعم النباتات وثمارها بل أيضا (ص ٢٣٠) سيقانها وأوراقها وجذورها ، وتضور الدماشقة المساكين جوعا على نحو يصعب تصديقه ، وافتقدوا كل وسائل الاغاثة ، وقد هلك عدد من الناس من العوز والجوع والبؤس ، بل ان الهواء قد تلوث بالروائح الكريهة نتيجة لتعفن الجثث فى الشوارع والطرقات حيث لم يجد الموتى من يدفنهم ، ولم يستطع أحد أن يعيش فى أى مكان باستثناء القلاع التى لم تحترق . وخارت قواى الجسدية والعقلية من روائح الجثث الكريهة ومن الاضطرابات الشديدة ، ولم أستطع أن آكل شيئا أو أنام من شدة الخوف . ولم أكن فى دمشق على أى حال فى الوقت

---

(٦٩) تختلف الاقوال حول مدة اقامة تامرلان فى دمشق ، فيقول البعض انها ثمانون يوما « النجوم جـ ٦ ص ٦٨ » أما فى Memoire, p. 455 فهى تسعون يوما .

وقد غادر تامرلان دمشق فى ١٩ مارس سنة ١٤٠١ م . انظر السلوك ورقة ٢٧ ب ، ابن عربشاه جـ ٢ ص ١٣٤ ، النجوم جـ ٦ ص ٦٧ ، المنهل ورقة ١٤٩ أ ، العينى ورقة ٢٤ ب .

(*) انظر النجوم جـ ٢ اص ٢٤٥ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، ابن اياس : بدائع جـ ١ ق ٢ ص ٦١٦ . وتؤكد المصادر العربية هجوم الجراد على دمشق : انظر النجوم جـ ١٢ ص ٢٥٣ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ١٣٨ .

الذى كان تيمور موجودا هناك ، وعندما جاء تيمور الى دمشـــق كنت فى مدينة بيت المقدس • ولقد ذهبت الى هناك فى بادىء الأمر من تلقـــاء نفسى ، وفيما بعد للصلاة من أجل أبى ، ومكثت هناك طوال الشــــتاء لترويح عن نفسى وللعبادة • وعندما جاء تيمور وانكسرت جيوش السلطان ولاذت بالفرار بدأت رحلاتى مع خادم واحد وقنصل كافا المدعو جانونيسى Janonuense of Cafa واتخذنا طريقنا الى دمياط ثم القاهرة عن طريق النيل • ومع فقدان كل ممتكاتى سواء هناك (فى دمشق) أو فى روما ، فانى اتجهت الى الاسكندرية[٧٠] • ولقد نويت أن أتجاهل فى ذلك المجلد قصة رحلاتى ، وسوف أعود الى أعمال تيمور • فبعد رحيل تيمور عدت من الاسكندرية الى القاهرة ثم بعد ذلك الى بيت المقدس • ومن هناك اتجهت الى قبرص ، وسافرت فى حزن عظيم حتى وصلت الى دمشق أخيرا لأجدها فى حالة خراب مروع • وســـوف أمر مرور الكـــرام على ما حدث فى تلك الأثناء ثم أعود مرة أخرى الى أعمال تيمور[٧١] •

---

(٧٠) يعطينا هذه التفاصيل اضافات عن ترجمة حياة دى ميجنانللى التى سبق الاشارة اليها فى المقدمة •

(٧١) أضاف دى ميجنانللى بعد ذلك وصفا لمعركة تامرلان ضد السلطان العثمانى بايزيد ، ووصف معركة انقرة وغزو سميرنا Smyrna (ازمير) ، وكذلك غزو تامرلان لبغداد • ثم أضاف مقالة عن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) • أصله وديانته • واختتم دى ميجنانللى مقالته بفصـــل عن اليهـــود وتاريخهم الحق بالمقالة فيما بعد سنة ١٤٤٦ م • وقد استبعدنا كل هذه المـــاده من الدراسة الحالية •

(*) جاء فى تعليق فشل W. Fischel بعض الألفاظ الغير لائقة عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى الالفاظ التى اعتاد الكتاب الغربيون ترديدها • وقد استبعدنا فى الترجمة العربية هذه الالفاظ •

مصادر ومراجع التحقيق

(أ) المصادر العربية

١ ـ ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصرى ت ٩٣٠ هـ

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ الجزء الأول القسم الثانى ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م ٠

٢ ـ ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م ٠

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة :

جـ ١٢ : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ٠

جـ ١٣ : تحقيق فهيم محمد شلتوت ـ الهيئة المصرية العامة لتأليف والنشر ، القاهرة ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م ٠

جـ ١٤ : تحقيق د٠ جمال محمد محرز ، فهيم محمد شلتوت ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠ القاهرة ١٣٩١ هـ/١٩٧٢ م ٠

٣ ـ ـــــــــــ :

ـ الدليل الشافى على المنهل الصافى ٠ جـ ١ ، جـ ٢ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ٠ طبع جامعة أم القرى ١٩٨٣ م ٠

٤ ـ ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢ هـ ٠

أنباء الغمر بأبناء العمر ٠ تحقيق د٠ حسن حبشى ٠ ثلاثة أجزاء٠ لجنة احياء التراث الاسلامى ٠ القاهرة ١٩٦٩ م ـ ١٩٧٦ م ٠

٥ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م
التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا • نشره محمد بن ناويت الطنجي — القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٥١ م •

٦ — ابن عربشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد •
٦ — كتاب عجائب المقدور فى أخبار تيمور • الطبعة الأولى • مطبعة وادى النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ •

٧ — ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد ت ١٠٨٩ هـ
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب • طبع المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت لبنان •

٨ — ابن قاضى شهبة : تقى الدين أبو بكر بن أحمد • ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م
تاريخ ابن قاضى شهبة : جـ ٣ تحقيق عدنان درويش ، طبع دمشق ١٩٧٧ م ، مجلد ٤ مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة رقم ٢٤٠٢ تاريخ تيمـــور •

٩ — ابن طولون : شمس الدين محمد بن على ت ٩٥٣ هـ
قضاة دمشق « الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام » • تحقيق صلاح المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م •

١٠ — الخطيب الجوهرى : على بن داود الصيرفى ت ٩٠٠ هـ •
نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان • ثلاثة أجزاء ، تحقيق د• حسن حبشى ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ م

١١ — العينى : بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ •
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان • مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ح ٨٢٠٣ ، مجلد ٢٦ ، ٢٧ •

١٢ — المقريزى : أحمد بن على • ت ٨٤٥ هـ ·
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك •
جـ ١ : فى ثلاثة أقسام ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٥٨ م •
جـ ٣ : فى ثلاثة أقسام تحقيق د• سعيد عبد الفتاح عاشور • مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ — ١٩٧١ م •

١٣ — والتر فشـــل :

لقاء ابن خلدون لتيمور لنك — ترجمة محمد توفيـق وردى — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت •

(ب) المصـــادر الأجنبية

1. De Mignanelli, Ascensus Barcoch, Translated from Latin to English by W. Fischel, in « Arabica Vol. 6, 1959 ».

II. Gonzalez de Clavijo, Embassy to Tamerlane 1403-1406, Translated from the Spanish by Guy le Strange, London 1928.

III. E. Piloti, L'Egypte au Commencement du quinzieme siecle, Le Caire 1950.

IV. Thomas Wright, Early Travels, the travels of B. de la Brocquiere.

مطبعة الجبلاوى

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤٣٠١